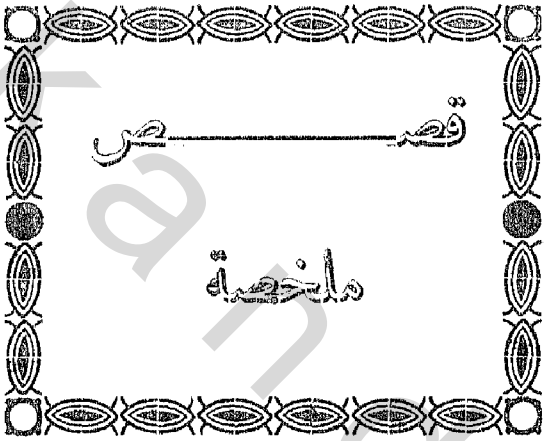

obeikandl.com

قوى كالموت !

Fort Comme la Mort

لجي دى موباسان

جى دى موباسان من أشهر القصاصين الفرنسيين وهو معروف لدى القراء فى مصر وقد ترجم له الكثير من القصص الصغيرة الشائقة . وهو من زعماء المذهب الواقعى (الرياسم) . وفنه تصوير دقيق حى للغرائز والشهوات والاخلاق البارزة الشائعة التى تميز بيئة عن أخرى وعنصراً عن سواه . ولكن هذه الظواهر لم تكن تكن وحدها مادة فنه فقد ارتفع موباسان فى قصصه الكبيرة الى ذروة الفن التحليلى النفسانى وتناول بالدرس والوصف أزمات الوجدان المضطربة المعقدة . وهذا الجانب من فنه يكاد يكون مجهولا فى مصر وهو الذى يبرز بروز ناصعا فى القصة التى نلخصها اليوم والتى كتبها موباسان كما ينظم شاعر موهوب قصيدة من الشعر الخالص

فنان كبير القلب سامى الوجدان . لطيف الشعر ، ولوع بالعواطف الملتهبة الصادقة ، والأحلام العذبة الرائعة يبحث عن الجمال وتنقضى حياته فى عبادته . وتنصرف جهوده الى ابرازه للناس فى ملح فنية هى غاية مايطمح اليه من عزاء . مديد القامة فى رجولة مكتملة ساحرة . تسبح فى عينيه الفاترتين خيالات مبهمة فتستسر أجفانه كأنما قد أخذته سنة الكرى . ينظر اليك فتنفذ نظرته الى صميم قلبك وتملك الى عالم مجهول فيه من المفاتن مايقصر عقلك العادى عن تصوره

هو كهل وخط الشيب رأسه ولكن روحه الساذجة روح طفل تطل على الحياة فى فضول دائم التجدد

obeikandl.com

ذلك هو المصور النابغة أوليفييه برتان الذى طبقت شهرته باريس وأقبلت عليه العقائل النبيلات يتبارين فى أيهن تظفر بصورة لها من صنع يده

وكان طاوى النفس الامن حب فنه وحب الجمال . لم يعكر مجرى صفاءه احساس دافق عميق . ولم يعرف فؤاده حتى الساعة ذلك التعلق بعاطفة فذة واحدة يستلهمها القوى المعنوية ويهرع اليها ساعة الانتاج كمعظم الفنانين

وعاش بين رفاقه المصورين والنسوة الجميلات من الخليعات أو أنصافهن اللواتى كن يعرضن أمامه أجسامهن نماذج للتصوير مقابل بضعة فرنكات فانطوى على نفسه وأودع شعوره الفياض جوهر قلبه ومضى فى سبيله يعمل بجد واجتهاد حتى فاز بالمجد الذى طالما تعلل به أيام الأمل والصبا

وكاد وجدانه يستقر ويرضى بهذا اللون من الحياة يلهم أمام عينيه متشابهاً مكدأ مضجراً لولا أنه دعى ذات يوم الى قصر الكونت دى جيلرواوعهد اليه بتصوير الكونتس قرينته احدى فاتنات باريس

وكانت أمرأة على جانب عظيم من الجمال . رقيقة الاحساس . رضية الخلق طيبة سمحة ، فى عينيها الهادئتين حزن كمين وفى حديثها الخلاب ضرب من اليأس المتواكل وعدم الاحتفال

كانت ثرية مرفهة ، موفورة العزة ، أبية شامخة . يحف بها المعجبون ، وتتناثر عليها آيات الثناء من كل صوب . ألا أن أوليفييه شعر لأول وهلة بما يجول فى نفسها من لواعج خفية . وما يضطرم فيها من عواطف لاتجد لها أى منصرف فترتد ، وقد ازداد اضطرامها وسطع بريقها من خلال العيون الحزينة الوسنانة الهادئة

رسم لها المصور صورة بديعة أقر الجميع انها خير عمل فنى تتمثل فيه شخصية الكونتس بأجلى مظاهرها . وجعل يتردد على القصر وتوثقت بينه وبين المرأة عرى الصداقة وأحس على دهش منه أن هناك قوة خارقة تدفعه لمشاهدة الكونتس والجلوس اليها والاستمتاع بحديثها والتملى من سحر عينيها . وشعر بأنه يزداد بالقرب منها قوة على قوة وان حاسته الفنية تستدق وتنعم ، ونظرته الى الحياة تتهذب وتسمو وتنفذ الى الأعماق

فاستهذب الجو الجديد الذى حبته به المقادير كنعمة غير منتظرة وأشربه وجدانه وراح يقف عليه كل ماوسعته أحلامه من سعادة وهناء

كان يخيل اليه أنه لم يعش حتى هذه الساعة وأن ماصادفه فى طريقه من جمال لم يكن غير وهم بددته هذه الحقيقة الفاتنة

وكيف لا تذهب بلبه فتنة هذه المرأة وهو الذى قضى شبابه يبحث عن المرأة الكاملة ، المرأة التى تجمع فى اطواء روحها فضائل الأنوثة من ملاحة وطيبة ورقة ، وفضائل الرجولة من استقامة ونزاهة وصراحة واخلاص . وها هو الآن وقد أصاب الهدف وعثر على الضالة المبتغاة يلقى عصا الترحال ويقنع ويحاول بكل ماأوتى من جاذبية الفن والرجولة والصدق ان يلهب فى كيان تلك المرأة العاطفة العظيمة التى ظلت تعذبه السنين الطوال

وكان زوج الكونتس رجلا ارستقراطياً جامد الحس ، بارد المزاج . يهتم لشؤون السياسية وحدها ولا يعير زوجه التفاتاً . وهو على جموده وغطرسته وعبادته التقاليد وذهنه الضيق المحدود يضيف الى ذلك أنانية بشعة تنفر منه قلب امرأته الولوع بتبادل الفكر والاحساس

كانت هناك هوة سحيقة بين الزوجة والزوج ترغم كلا منهما على العيش بمعزل عن الآخر وتنمى فى فؤاد الكونتس تلك العواطف الدفينة التى تتغذى الأنوثة منها وتقوم عليها ولا تزدهر الا بها

وعبثاً حاولت الزوجة أن تجد فرجة تشرف منها على نفس قرينها . فالزواج فى نظره كان محض شركة يفرضها المجتمع وتأمر بها التقاليـــد . أما الاتصال النفسانى والاندماج الفكرى والتلاؤم الخلقى فآخر ماكان يمكن أن يخطر على بال الكونت وآخر ماأصبحت الكونتس ترجوه من حياة البيت ونظام الاسرة

على أنها لم تكن لتبدى لزوجها أى كره أو اعراض ولم تكن لتتبرم به أو ترفض تأدية ماعليها من واجبـــات اذ المجتمع القائم على ستر الفضائح وخنقها فى المهد والتظاهر بالتفاهم والوفاق كان يحرم عليها أن تنتقض وتثور وتحطم أغلالها وتنطلق

وكانت لها ابنة تدعى آنيت تحبها الحب كله . وتخشى أن هى تمردت وتركت

البيت أن تنتزع منها فلذتها الوحيدة وأن يرمقها الناس بعين الاشمئزاز والسخط وهكذا احتملت جفاء زوجها . وانصرافه عنها وبدت في الحفلات وكأنها المرأة المتعة الراضية التي لا تقع أبصارها على شيء إلا وتفوز به على الفور

ولكن أوليفيه لم يخدع بهذا المظهر واستطاع بصره الدقيق أن يكتنه سره تلك الروح الحائرة وان يمسح عنها الزيوف ويخرج بها من حظيرة الاوضاع الاجتماعية الملفقة إلى فسحات الحرية والنعيم

* * *

طارحها الهوى ذات يوم فثار ثائرها واستنكرت منه هذه الجرأة وكادت تغلق في وجهه أبواب قصرها ولكن الفنان كان رحب الصدر جم الاحساس عذب العبارة مدلها حيران تبدو على وجهه أمارات الضنى ويرتسم على تقاطيعه ذلك الاسى العميق الذي كانت تحسه المرأة ايضاً في نفسها

رأته جاثيا عند قدميها يتوسل ويستجدي ويلثم أطراف ثوبها ويدعوها لانقاذه من الوهدة التي لابد إن صدفت عنه أن يتردى فيها

واغرورقت عيناه بالدموع وجعل يفيض عليها بما حشدته الايام في قلبه من كنوز الاحساس ويلوح لها بالحياة المرحة الطليقة التي تبسم لهما آفاقها عن بعد ويصور لها ذلك العالم الجديد عالم النسيان والشعر الذي لا يقاس بكل ما في قصرها من مباهج الترف ومناعم التحضر الباطلة

وكان بارعا في تصويره صادقا في نبرات صوته ساحراً في لون وجهه الشاحب الحزين

فأشفقت عليه ووقع من نفسها ألمه وعز عليها أن ترسل اليها المقادير الرحيمة كل هذا الحب ثم تعرض عنه وتدعه لغيرها من النساء

وجاشت فيها العوامل المستكنة التي حال المجتمع بينها وبين النماء . فتصاعدت بغتة من حنايا ضلوعها وغمرتها فلم تستطع المقاومة ولم تر فيها أي جدوى فأقبلت على المصور واحتضنته بكلتا ذراعيها وقبلته قبلة طويلة تائهة . فخيل الى الفنان عندئذ أن الطبيعة بأسرها قد عنت له . وان الحلم والحقيقة . الفن والحياة . المرأة

والمجد . كل هذه الروائع أصبحت له . ممثلة أبلغ تمثيل وأتمه فى عينى هذه المخلوقة الفاتنة التى لم يكن ليتصور منذ بضعة أشهر فقط أن فى وسعه — وهو الرجل الشريد البسيط — أن يرفع اليها بصره لحظة واحدة !

* * *

وكان حباً أشبه بالفرار منه بالحب . فرار من الواجبات الاجتماعية المرهقة. فرار من الكذب والمداهنة والرياء . محض صفاء روحى فى قلبين نزيهين طاهرين يفزع كل منهما الى الآخر ، ويستكمل الواحد منهما نقصه الطبيعى فى الآخر . فاوليفييه كان يستهبط وحى الفن من جمال حبيبته الكامل . ويستمد منها تلك الرقة الأنثوية الغريبة التى تضفى على رسومه حلة أنيقة جديدة . والكونتس دى جيلروا كانت تحس فى عشيقها ذلك التوق إلى الفناء فى العاطفة والطموح الى ابتداع مثل أعلى فى الحياة . والاندماج فى شخص الحبيب اندماجا تاما طالما بحثت عنه فى الرجال الذين يحتاطون بها فعادت بالخيبة المرة .

وكانت تزوره فى منزله وتقضى اللحظات الطويلة فى حجرة التصوير تتفحص مولدات خياله وتبدى له عليها أدق الملاحظات وتنصحه بتجويد عمله ومراجعته وصقله مرات حتى يبلغ الاتقان حداً لازيادة بعده لمستزيد

وكانت سعيدة كل السعادة بهذا الرجل الشديد الاخلاص الذى يجمع مفاتن العالم جميعاً فى وجه واحد هو وجهها ، وطيف مختار هو طيفها

ومكنته من نفسها عن طيبة خاطر واصطفاها دون النساء جميعاً ملاذاً لاحساسه والهاماً حياً شعر على التوالى بان حاجته اليه أصبحت كحاجته الى الهواء والنور والغذاء

وتطور حبه واستحال عبادة حارة . عبادة الجمال المطلق ممثلا فى أمرأة ممتازة لم يجد لها بين من عرف من الغوانى أى شبيه

وكان أوليفييه كمعظم الفنانين أو جلهم مجنونا بعبادة الجمال . لذلك أحب

الكونتس ، أحب فيها مادة وجوده ومادة فنه . أى الغرض الذى من أجله كافح وفى سبيل الوصول اليه وامتلاكه يعيش !

على أنها مع سعادتها القصوى كانت تتألم أشد الألم لاضطرارها الى التمويه على زوجها ، واخفاء عواطفها ، والظهور بمظهر الزوجة الفاضلة ، وخديعة الأصدقاء والصديقات وخيانة حبيبها المعبود نفسه نزولا على مايأمربه الواجب الزوجى . . .

ولكنها كانت تحب . والمجتمع لايرحم . ومصير ابنتها ومستقبلها يتطلب منها الخضوع والرضا بالخديعة والذل

وأدرك منها ذلك أوليفييه فلم يحاول استثارتها على واجبات الأسرة والمجتمع وقنع منها بسويعات لذة عابرة تمنحه إياها كما يمنح القضاء الرحيم الانسان بعض الهبات آنا بعد آن . ولم يكن فى وسع المصور أن يحيا بعيداً عمن يحب . كانت رؤيتها وحدها كافية لتزويده بالطلاقة والمرح والنشاط وطرد شبح الكهولة القاسى الذى كان يتقدم اليه على مهل يحاول أن يستلب منه الجوهرة التى صاغها من دم قلبه وعزيز أحلامه وقوة الأمل المودعة فيه كغريزة عاتية لاقبل له بمقاومتها

ومرت الأعوام وتلتها أعوام أخر والمرأة تزداد ولعاً والفنان يزداد تعلقاً وعلاقتهما تتوثق والضجر أبعد مايكون عنهما والخلاف لاسبيل له الى قلبيهما والحب يعبد لهما الطريق منبسطة رحبة كنهر صاف ماله انتهاء

وسما بهما الهوى الى أوج المودة الهادئة والصداقة الحلوة العابثة . وتبادل الآراء والعواطف فى نشوة قريرة ساحرة

أصبح الحب راحة كبيرة . وداعة حالمة . تطهر وسكون . أشبه بالاتصال الروحى بين الصوفى وربه

ولكن الأيام كانت تعمل فى الخفاء عملها . والسنون المتعاقبة المقبلة فى اتئاد كانت تحاول السطو عليها وتدمير البناء الرائع الذى شاده الحلم الجميل !

لمحت الكونتس فى مفرقها أول الشعرات البيض واختبلت إذ أبصرت فجأة أول التجاعيد تكمن وتتمدد فى زوايا فمها وعينيها

وكذلك أحس أوليفييه بالشيخوخة الهابطة تنوء عليه وتسكر ملامحه وتشعل فى رأسه الشيب وتكاد تقوض جسمه الرشيق تقويضا . ولكن حبه الحياة كان ما يزال يدوى فى فؤاده ، وعبادته الجمال ما برحت مستولية عليه كما كانت أيام صباه ، وهل يستطيع فنان صادق أن يودع الشباب على هذه الصورة ، أو أن يتخلف ولو هنيهة عن تقديم ذاته للجمال قربانا أو أن يسمح للشيخوخة أن تستذله وتغلق دونه أبواب النعيم ؟

هذا العارض كان قوام شخصية أوليفييه وهو الذى دفع به الى حب الكونتس وهو الذى يحلق عليه الآن كلعنة ملازمة تفر أمامه الهوة المظلمة السحيقة شيئاً فشيئا ! . .

* * *

وكان أوليفييه قد عرف آنيت — ابنة الكونتس — فتاة صغيرة طائشة لاهية . وحنا عليها حنو الوالد على ولده ، وكانت الأم قد أرسلت بها الى احدى المدارس وطلبت الحاقها بالفرقة الداخلية فظلت الفتاة هناك ثلاثة أعوام لم يرها فى أثنائها أوليفييه

وفى ذات يوم وقد أخبر بأنها سوف تترك المدرسة وتعود الى البيت فتح الباب بغتة ودخلت فتاة آية فى الحسن . بسامة الثغر وضاحة الجبين ، طلقة المحيا ، مشرقة مرحة لعوباً عليها من نضارة الصبا ما يسترعى البصر ويأخذ بمجامع القلوب

أقبلت على المصور وحيته أحسن تحية وجعلت تغدو وتروح . تقفز وتتحدث خفيفة النفس ، مرنة الحركات . بريئة ساذجة يتدفق فيها دم متحمس فوار وتخلق حولها جواً من الثقة والاعتداد والطرب

حدق اليها أوليفييه وإذا هى صورة لأمها أيام كانت شابة . صورة عجيبة ومذهله . الفم القرمزى الصغير هو فم الوالدة . والصدر العريض صدرها . والجبين الناصع جبينها والصوت صوتها ، والعيون الوسنانة الحالمة هى تلك العيون ولكن لم تعكرها بعدلا الاختبارات المرة ولا الجريمة ، ولا القنوط ولا الشجن . أحس الفنان أن حياة عشيقته وحياته . شبابها وشبابه . يتجددان أو قد تجددا وبعثا فجأة

فى هذه المخلوقة المقبلة على الدنيا بقدم راسخة وعزم ثابت وضحكة رنانة لاتحفل بالكآبة والتفكير ولا تقيم وزنا لأى شيء

دب فيه الذعر وسرت فى جسمه رعدة وطفق يتابعها النظر ويذكر بالرغم منه ساعات حبه الأولى . وينقل الطرف من الفتاة الى أمها وهو لفرط الشبه بينهما يكاد يخلط بين ماضيه وحاضره ولا يدرى أيهما الحقيقة وأيهما المحبوب وأيهما أدعى الى العبادة وأجدر بها

راجع نفسه وانكمش وجعل ينحى على قلبه باللائمة ويفكر فى خليلته وفيما متعته من لذائذ ومسرات . وفى هدوئها الحالى المتواضع الكسير

هدوءها ! . . باللخيبة ! انه لاشبه بالركود الآسن منه بالهدوء المكتمل الجذاب . . أين ذلك الهدوء من هذه الحياة الجياشة المصطخبة التى تجرف فى غير مبالاة كل مايعترضها وتصوب أبصارها بعيدا . هناك حيث المستقبل الزاهر يسطع عليه الشباب ويحميه !

وشاع الاضطراب فى نفس أوليفييه وتنازعته عوامل الحيرة والقلق والخوف وحاول ان يفر من هذا البيت . أن يختفى ولو بضعة أيام . أن يخلو الى فؤاده الجاحد ويحاسبه حسابا عسيرا

ولكن عبثا حاول . فرسم الفتاة كان لا يبرح مخيلته . وضحكاتها لا تفتأ ترن فى أذنيه . وامتلاء جسدها الغض يلوح أمامه فيقض مضجعه ويبتلى ظلمة لياليه بالخيالات المحرمة المنكرة

لم يجده النضال نفعاً . عاد الى منزل عشيقته . واسترسل فى خلطة الفتاة . وألف الخروج معها والتحدث اليها . ومشاهدة الملاهى بالقرب منها . ومرافقتها فى المتنزهات والمفاخرة والزهوبها وهى مستندة الى ذراعه والابصار ترمقها باعجاب وانصرف عن الوالدة الى ابنتها يكذب على الأولى ويصطنع البساطة والبراءة والأبوة ليظفر بنزهة أو جلسة أو سمر تافه مع الثانية

تورط فى احساسه وفقد ملكة الحكم على أعماله وعادلا يابه للمواعيد التى تضربها له الأم ولا لحزنها الطارىء . ولا ليأسها وحسرتها . وشعرت الكونتس

بالخطر يهدد حبها ويهدد ابنتها على السواء . و كبر عليها ان تشيخ فلا تجد فيمن أحبته ملجأ ونصيرا . فكانت اذ تلفها الوحدة تبكى وتتلوى حنقاً وكمداً . تبكى صباها الضائع ونكبة هواها وجنون عشيقها ثم تعاودها القوى فتهب من غفلتها وقد اعتزمت ان تفرق بين ابنتها وحبيبها مهما كلفها الأمر من عذاب . على أنها كانت لشدة عطفها عليه وتقديرها صدق عواطفه ، لاتبغضه بل ترأف به وترثى لحاله وتتمنى ان تنقذه مما يعانيه من حيرة وألم

أما هو فقد بدأ يحب الفتاة حباً عاصفاً غلاباً مبرحا دون أن يصارح نفسه جهرة بهواه . ودون أن يتورع عن مقابلة الام . ودون أن يشير فى حضرتها الى ما قد يميط عن دخيلة قلبه اللثام . ولكنها كانت تفهم كل شىء وتصفح عن كل شىء وتظن أنها لو تمكنت من ابعاد ابنتها أو أبعاد أوليفيه فقد يصفو لها الجو ويعقب العاصفة سكون رائق أفتن وأحلى من السكون القديم . . .

أقامت الحفلات وعرفت ابنتها الى بعض الفتيان النبلاء واختارت لها من بينهم زوجا هو المركيز دى فرندال . فتى فى مقتبل العمر لايمتاز عن اقرانه بشىء ثريا عاطلا يقضى معظم أوقاته فى الاندية والصالونات . ولم يكد أوليفيه يدرك هذا حتى التهب فى صدره غرامه الجديد وشعر بالغيرة الفاتكة تنهش قلبه وبالكره يتمدد فى كيانه كلما وقعت عيناه على المركيز

أبغض هذا الفتى بكل مافيه من عجز الشيخوخة وقسوتها . أراد أن يمنع هذا الزواج فجعل يحط من شأن المركيز فى نظر الوالدة . ويستنكر كيف ترضى بمثله بعلا لابنتها

واستولى عليه ضرب من الشلل الذهنى الفظيع . فكف عن التصوير . ولاذ بالتأمل والحلم

وهال الكونتس مارأته منه . أبصرته يشحب على مر الأيام . وينفر من الجميع ، ويغلظ فى القول وتعتريه بعض اللحظات شبه غيبوبة فيظل هنيهة مسبل الاجفان مطأطأ الرأس تنقبض عضلات وجهه وتكاد عيناه تجهشان بالبكاء

ولكنه كان يطمح فى قرارة نفسه الى تخليد الجمال الذى يعيش من أجله والذى يشهده كل يوم متجددا حياً فى شخص آنيت والذى فى سبيله خان المرأة التى أخلصت له أعظم اخلاص . أراد ان يفوز من الصبية ولو بعمل فنى ينقع به غلته . فدعاها إلى بيته وثبت على القاعدة لوحته واعتزم أن يخلق من الفتاة صورة يودع فيها مأساة حبه ويسميها (الحلم) . . .

أقبلت الصبية مصحوبة بامها وشرع الفنان فى الرسم منهوك الأعصاب خائر القوى مضطرب اليد . يتلفت حذراً لئلا تلحظ الفتاة ماهو عليه . وكاد يضل سبيله ويراكم الألوان فى غير حذق ويفتضح . بل كاد يصرخ ألما ويبكى فأسرعت الام وأشارت على ابنتها بالخروج لحظة ثم تقدمت الى حبيبها وجذبته اليها وحدقت فيه وكاشفته بالحقيقة كلها

قالت له انه يحب ابنتها . وأن عليه أن يعود الى رشده ، ولا ينسى الماضى . ويشفق على حياته ومستقبل الصبية ويبتعد أو يرحل أو يحتجب مبقات مايتم زواجها

فتهاوى الرجل وتداعت البقية الباقية من عزيمته واعترف لمشيقته بأنه يحب ابنتها لأنه يحبها هى وأن مقياس حبه لها هو هذا الغرام المحرم الذى يشعر به نحو فتاتها . واستحلفها بكل عزيز لديها ألا تحكم عليه حكما صارما وألا تحول بينه وبين رؤية آنيت . وأن تمنع زواجها بضعة أشهر أيضاً بل بضعة أسابيع ريثما يقضى الله أمراً كان مفعولا . . . ولكن المرأة أصرت على نصحها وعادت تلتمس اليه ألا يتهور وأن يناشد عقله الحكمة والرزانة والا يؤمل فى ارجاء الزواج مخافة أن يستفحل الخطب وتدرك الفتاة الحقيقة وتلغط بالحادث المخجل السنة الناس . . .

وكانت الكونتس فى كل ماقالته تصدر عباراتها عن نفس أبية شماء لاتعرف الكراهية أو الاشمئزاز بل تواجه الواقع فى غير تبرم أو سخط ، وتفهم حق الفهم تقلبات الطبيعة ونزعات الفطرة وأحكام القلب البشرى . وانصرفت وفتاتها

بعد ان وعدها المصور خيراً . ولكن آنيت لم تلبث أن غادرت البيت حتى عاد شيطانها يجثم على صدر أوليفيه ويصليه من العذاب . تفاقم شعوره بالوحدة واتسع الفراغ فى فؤاده ، واستعرض حياته فالفاها خاوية من كل سعادة ، مظلمة الا من هذا الضياء البعيد الثمين . فكاد يجن جنونه وأخذ يهذى هذيان محموم . وأحس أن الأم التى طالما أحبها فى الماضى هى الآن العقبة الكؤود . فلم يطق . لم يطق النزول على أرادتها وإنكار حبه كما نصحت له . فارتدى معطفه وتناول قبعته وانطلق

دخل البهو وكان غاصا بالمدعوين فتلقته الكونتس بهدوئها العادى وانتبذت به مكاناً قصياً

دار بعينيه باحثاً عن آنيت مرتقباً مجيئها ، مرهفاً أذنيه لوقع خطواتها

ثم جاءت الفتاة فحياها وسمع منها أن زواجها سيتم وأنها هانئة بمرورها وافرة الثقة بالمستقبل . ترجو عيشاً مديداً وراحة ومسرة

وذهبت فأحس أن قلبه يتمزق تمزيقا وعاد إلى الأم يلتمس منها ارجاء الزواج ولكنها قطبت حاجبيها وفى لهجة جادة حازمة نزيهة طلبت اليه ان يكف عن زيارتها ردحاً من الزمن وألا يرجع إلا بعد الزواج فتداعت قواه وارتجف واصطكت مراشفه وكاد يغمى عليه ولكنه ثاب إلى رشده فخشيت الكونتس ان يعاوده ضعفه فأمرته أن يرحل . أن يخرج حالا وإلا ساءت العقبى

وأظلمت الدنيا فى عينيه وشعر بأنه يطرد فخرج مترنحا يتعثر بأثاث الغرف والدم يغشى بصره ودقات قلبه تخنقه وما أن استقبله الشارع حتى انطلق هائما على وجهه لايدرى أنى يسير وإلى أين يذهب تائها شريداً . ينتحب ويبكى بكاء الأطفال ! وفقد الشعور بأنه يمشى وسط الجموع وان الشوارع حافلة بالسابلة وأنه يجب ان ينتبه ويستفيق

وفجأة صرخ أوليفيه صوتا هائلا ومال على نفسه ثم وقع على الارض لايعى على شىء وقد صدمته عربة كبيرة ومرت عليه عجلاتها فأخمدت للفور صرخته وتركته مخضباً بالدماء

اخطرت الكونتس بما وقع فاختبلت واستحوذ عليها الرعب واسرعت اليه

والدموع تترقرق من حدقاتها وما أن وطئت قدماها عتبة الغرفة حتى شاهدت الرجل الذى كانت تعبده مسجى أمامها يلهث ويزفر زفرات الحمى أصفر اللون ضامر التقاطيع غائر الوجنات على ابأس مايمكن أن يكون انسان فهالها مافعلت ونسبت الكارثة اليها . الى ابعاده عن بيتها . الى طرده دون رحمة

وتقلب الجريح على فراشه والتقت أبصاره بأبصار حبيته القديمة . وتفجرت عيناه بالعبرات فاقتربت منه فاخذ يدها بين يديه وقبلها وأفضى اليها بأنه لم يكن مسؤولا عن عواطفه . وأن الطبيعة وحدها هى الآمرة . وأن القدر الغادر هو الذى أراد ماكان

وكان قد جمع رسائلها الغرامية فاخرجها وناولها إياها ورجاها أن تحرقها هنا . . . فى الموقدة . . . حفظاً لسمعتها . وإلحاداً لحياته كلها !

فاطاعت وألقت بها فى النار والتفتت الى الطبيب فقال هذا انه راحل وأوصى بالمجى ء بممرضة فرفضت السكونتس وأجابت أنها ستبقى بجوار صديقها حتى مطلع الفجر

وشاع السكون فى الغرفة ولم يعد يسمع فيها غير أجيج النار فى الموقدة وزفرات الجريح المتقطعة

والتمعت جمرة من الجمرات فاستضاء بغتة محيا أو ليفييه فانحنت السكونتس عليه ومدت ذراعها ولمست كفه المتدلية واذا هى رخوة باردة برودة الثلج . فنهضت والذعر ملأ قلبها وحدقت اليه فابصرت حبيبها ساكنا هامداً مستريحا . يبتسم ابتسامة عذبة صافية كأنما هو سعيد بانه قد عاش وتألم ومات لا من اجلها ولا من اجل ابنتها بل فى سبيل الحب والجمال والفن

فاجعة البحيرة

Tragedie sur le lac

لبلاسكو ايبانيز

بلاسكو ايبانيز من اشهر كتاب اسبانيا . يمثل روح بلاده ونفسيتها ابلغ تمثيل . فأسلوبه قوى متدفق . وطفه بالاسلوب لايصرفه عن دراسة الحياة دراسة صحيحة عميقة . فهو يختار اشخاصه من صميم الاوساط الاسبانية ويرسم لنا اخلاقهم وعاداتهم ونزعاتهم الفطرية القريبة الى الطبيعة البعيدة عن جبن اهل المدن . وابطال القصة التى نلخصها اليوم من القرويين الاقوياء الذين يصارعون الغرائز وتصارعهم فاما ان يفوزوا عليها واما ان ترديهم . وقد قال الناقد الالمانى ارنست روبير كورتيوس ان هذه القصة هى مأساة الخير والشر وانها ابدع ماأخرجته قريحة بلاسكو ايبانيز

كان الجد بالوما شيخاً . صلب العود . ابيض الشعر . جليلا ، فى عينيه الواسعتين أنفة وشموخ . وفى حديثه قوة . وفى مشيته عزة وثبات وثقة

عاش فى قرية تدعى بلمار بضواحى فلنسيا وتزوج فرزق غلاماً تزوج هو الآخر ثم توفيت قرينته وخلفت له طفلا رائع الجمال أسماه تونيه

لم تمر بحياة هؤلاء الناس أية حادثة . ولم يشعر أحد منهم لا بالحزن العميق ولا بالألم الشديد ولا بالفرح غير العادى

كانوا يشاركون الطبيعة فى صفائها وهدوئها وعدم احتفالها وسعيها المتواصل فى سبيل تجديد الحياة وكانوا أقوياء مثلها ذوى غرائز حرة وأفكار محدودة ضيقة واحساسات جافة ورزانة وجهامة وصمت ونفور ولم يكن أحب اليهم من العمل المطرد . والجهد الشاق والغذاء الطيب والنوم الهنىء بعد كد النهار المضنى . وكانو

محافظين جد المحافظة . مؤمنين أشد الايمان .غيورين على أعراضهم يؤثرون الموت على الفضيحة . وأبلغ ما تتمثل أخلاقهم فى الجد بالوما . فهو حريص على شرف الاسرة كل الحرص . يذود عنها ويرعاها ويدافع عن سمعتها ويقيم من نفسه المثل الصالح فى الاستقامة والشهامة والنبل . وكان فخوراً بشرف أسرته . مزهواً بماضيها النقى . يباهى بعاداتها وتقاليدها ولا يغفر الاساءة أبداً

أما ابنه فكان على غراره ماخلا بعض الفتور وشيئاً من التواكل والضعف

ولم تكن للجد وابنه مهنة غير الصيد ، يستفيق الشيخ والفجر المنبثق ثم يوقظ ولده ويذهب الرجلان الى البحيرة المجاورة يصيدان الطيور والاسماك ويحملانها حتى المدينة فيبيعانها هناك

وكان الجد يعبد البحيرة ويرى فيها علة حياته ومصدر وجوده وينبوع أفراحه لايقدس فى العالم بعد الله غيرها ولا يشعر بالعظمة والسرور الا بجوارها

أما سعادته فكانت فى الصيد وفى الصيد وحده . لايعترف بمهنة أسمى من هذه المهنة أو أجدى نفعاً ، وكما احترف أسلافه الصيد كذلك يحترفه هو وكذلك يجب أن تحترفه أفراد الاسرة جميعاً

إلا أن حفيده كان على نقيضه تماما . فقد نشأ تونيه يحتقر الصيد والصيادين يسخر منهم ويهزأ بساعات العمل الطويلة التى يقضونها عند البحيرة صامتين خاشعين

وكان عابثاً مستهتراً كسولا أولع مايكون بالتأمل الطويل . والحلم المستمر . ونوم الضحى والأكل الطيب والانصراف عن كل عمل مادامت بقربه عيون جميلة وجبهة وضاحة وفم مبتسم ...

شب تونيه وفى نفسه إحساس عميق بجماله يدفعه إلى الاستمتاع بالحياة والاعراض عما يورث الألم والتعب والمشقات

وكأنه كان يشعر ان لجماله من الحقوق ماليس للاخرين وأن الطبيعة قد حبته بنعمة خاصة وانه يجب ان يميز عن جده الصارم القاسى وعن أبيه العامل المجد وعن اهل القرية البله المساكين

وانقضت سنو حداثته تارة فى الصيد والفلاحة صحبة جده أو أبيه ، واخرى

فى شوارع القرية يستوقف الغادات العابرات فيحادثهن ويطرى جمالهن ويبهرهن بمليح النكات ويخلب ألبابهن بسحر منطقه وفتنة محياه

وكن جميعاً معجبات به يتسابقن إلى نيل رضاه ويتبارين فى أيهن تفوز منه بنظرة أو ضحكة أو حديث بسيط

وكان يتعالى عليهن . ويتهكم بهن . ولا هم له إلا الشعور بسلطانه على الأفئدة ووقع جماله فى النفوس

ولطالما حدق فى البحيرة فشاهد فى مرآتها وجهه الصبوح المستدير . وعينيه السوداوين الخبيثتين وأنفه المستقيم وفمه الدقيق وشعره المتهدل المجعد يكلل جبينه المشرق العريض . فكان يبتسم فرحاً وغبطة ويروح فى شبه نشوة تشجعه على التمادى فى الكسل والاستهتار

وكان الجد يلحظ عليه هذا فيزجره وينهره ويهيره محتداً ساخطاً مستشيطاً مذكراً اياه بواجباته . مستحثا فيه بواعث الهمة . مصورا له سعادة العمل والجد وكيف أنها فخر الانسان وسلواه . وأن من تذوقها لابد معرض عما سواها إذ المرأة وفتنتها . والشباب ونزقه والجهالة وماتغرى به . كل هذه الاشياء باطلة . أما الأسرة فتبقى . وأما العمل فمقدور لامفر منه . وأما البحيرة وكنوزها فأبدية خالدة !

ولكن تونيه كان يستمع الى حديث جده ثم لايلبث أن يبصر حسناء عابرة حتى ينساه ويعود الى ألاعيبه غير آبه لشىء

وكانت تسكن بجوارهم بائعة سمك وكان لهذه البائعة فتاة تدعى نيليتا . بارعة الحسن على ذكاء خارق . يشوبه المكر والدهاء

هذه الفتاة هى التى استطاعت ان تستولى على قلب تونيه . وتفوز على أترابها وتزهو بمن اصطفاه قلبها حبيباً لها

وكانت فقيرة تشتغل بائعة سمك كأمها . ولكن الطموح وغريزة التطلع الى العلا . وعبادة الترف والولع بالثروة والمال . كل هذه العوامل كانت ترقد فى نفسها وتخلق فيها ضرباً من اللؤم والخسة والجسارة والكبرياء .

وكانت بضاعتها لا تصادف رواجا وتشعر بالجوع يمزق أمعاءها حين تأتى الى منزل تونيه وتقبع فى الزواية مطأطئة ساكنة بائسة فتأخذه الشفقة عليها

فيهرع الى جوف الدار ويأتيها بخبز ولحم يقدمه اليها وهو يبتسم فتختطفه من يده اختطافا وتلتهمه وعيونها الساحرة تحدق فيه تحديق شكر وولع وتقديس !

وكانت أشبه بدمية فاتنة منها بفتاة بائسة . طويلة القامة ، ناصعة البشرة ، سوداء الشعر ناعسة الاجفان ، تسير بخطى مسرعة فيتلوى جسمها الغض فيرتجف تونيه ويعجب ويهلع كأنما هو أمام حية تسعى

ولم يكن أحب الى نيليتا من الخروج الى النزهة صحبة تونيه . تتأبط ذراعه وتسايره ضاحكة عابثة وتتلفت عليها ترى امرأة أو فتاة تشهد هذا النصر العظيم

وكم كانت لهما جولات فى الغابة المجاورة . تلفهما الأغصان وتتهدل عليهما أوراق الشجر ونيليتا تقهقه وتونيه يتأمل جمالها فى صمت وحلم

إلا أنه كان قويا يحس سلطان هذه المخلوقة على فؤاده فيغالب نفسه ويتبرم بها وينصرف عن الفتاة بضعة أيام فتنفر وتحتجب يوما ثم تعود اليه متوسلة مسترحمة

وشعر الفتى أنها خطر عليه . وانه قد يضعف فتزل به القدم فحاول ان يقصيها ولكنها تشبثت به ولجت فى حبه وتدلهت ، فخشى أن يمنيها بالوعود الكاذبة واعتزم ألا يراها وألا يظل فى البيت لحظة اذا ما وفدت اليه

تعذبت نيليتا وكاشفت الشاب بما يكنه قلبها واستحلفته بكل عزيز عليه أن يقدر احساسها والا يبتليها بالحسرة واليأس والخيبة العميقة المرة . ولكن تونيه لم يأبه لها وكانت غرائز الحرية قد استيقظت فيه وتمكنت من نفسه فأخذ ينظر الى القرية نظرة سأم وضجر والى أهلها نظرة سخرية وازدراء . والى حياته الراكدة نظرة لوعة وبغض

وفى ذات يوم وقد استولت عليه هذه العوامل صارح والده وجده برغبته فى الالتحاق بالجيش فذعرت الفتاة واختبلت وأعولت ، ولكن الشاب لم يحفل بها وودعها ثم ودع أسرته أيضا ورحل

رحل تونيه وصورة نيليتا ماتزال ماثلة فى خياله ، وحبها الشديد يطارده ، وصرخاتها لاتنفك تدوى فى أذنه ، وقلبه يحن اليها ويأسف على الماضى العذب الجميـــل !

* * *

أفاقت الفتاة من غفلتها وأدركت حقيقة الأمر وأيقنت أنها لو كانت غنية

لما صدف تونيه عنها ولما قاست كل هذه الآلام

وعاد اليها احساسها بالطموح ، واستحوذت عليها الرغبة فى الترف والثروة ، وعبثاً كانت تزور الجد كل يوم وتسأله عن أخبار حبيبها . فتونيه لم يذكر اسمها فى رسالة واحدة من رسائله ولم يحمل أى صديق له أية تحية اليها كأن لم يكن بينهما شيء. وكأن العذاب الذى احتملته راح هباء.

تمردت نيليتا على حياة البؤس . وأنفت بيع السمك ، وأجالت طرفها فى حسان القرية فألفت نفسها أجملهن فهز عليها أن تقضى العمر فقيرة مشردة

وفكرت فى احتراف مهنة أخرى ، وكان بالقرية رجل يدعى الاب باكو كهل موسر مريض وأرمل عصبي نفور ، وصاحب حان مشهور ، فذهبت اليه وعرضت عليه أن تعمل فى حانه فقبل وعينها كصرافة وخادمة

ورأت الفتاة بعين بصيرتها أن مركزها قد يتوطد هنا ، وأن المجال فسيح للعمل وأن الكهل أحمق وغبي ، وأنها قد تصبح يوماً صاحبة الأمر والنهى فبذلت قصارى جهدها لمرضاة الزبائن واستجلابهم ، والتلطف معهم ، وأفرغت قواها جميعاً فى استمالة الكهل والتودد اليه ورعايته وحراسة ماله كأنه من حر مالها ، فاعجب بها واطمأن اليها وسلمها مقاليد الحان ، ولما أن شاهد اقبال الزبائن ووفرة الدخل ضاعف مرتبها فانشرح صدرها ووثقت من النجاح فى المستقبل القريب

وكانت تعيش فى جناح خاص من منزل الأب باكو تأكل هناك وتنام ولا تفكر الا فى تحقيق آمالها الكبار

وساعدتها على ذلك شخصية الكهل فقد كان بدينا نهماً أكولا بخيلا وكانت هى تقتصد له وتدخر وتقتر فى النفقات حتى ازداد الدخل وفرح الأب باكو وبات يرى فى نيليتا المرأة العاقلة الرشيدة الحازمة

ولم يكن ليلحظ كل هذا ويفهم الخطة المدبرة سوى مدام ساماروكا . وهى امرأة داهية . واسعة المطامع شديدة الغيرة . قبيحة الصورة . نمامة واشية مافتئت تعلل نفسها بالسيطرة على الاب باكو والاستيلاء على ثروته والاقتران به بعد ان توفيت زوجه التى كانت شقيقتها

ونشب الصراع بين المرأتين . كل منهما تدس للاخرى وتلقى فى روع الكهل أبشع الافكار والظنون

فتتهم ساماروكا الفتاة بالخلاعة والتهتك والطمع ، وترميها نيليتا بنفس التهم والرجل حائر بينهما مسلوب الحول فاقد الارادة لايسلم بسوء نية الفتاة بينما وجودها يدر عليه الذهب أنهارا

واستحكمت صلة المودة بين الكهل ونيليتا وركن اليها برغم الوشايات ولما أحست أنه وثق بها تمام الثقة أقبلت عليه وافتنت فى أغوائه وراحت تجود عليه ببعض الدعابات . وتتجمل وتتظرف وتبادله النظرات الطويلة الساحرة والاحاديث المعسولة الفاتنة حتى استيقظ فى الكهل وهم الشباب فشغف بهـــا وعرض عليها الزواج

عرفت ساماروكا بالامر فجن جنونها وذهبت تشيع الخبر فى القرية وتنهش عرض الفتاة

ولكن نيليتا هزأت بها وتحدت القرية كلها ونصحت الكهل بالتمهل بضعة أسابيع . ثم على حين فجأة وقد ظن الناس أن القصة محض مهزلة أوعزت الفتاة إلى الاب باكو ان يعلن موعد الزواج ففعل . فوقع النبأ على ساماروكا وقع الصاعقة ، اما فتيان القرية فقد عجبو لنيليتا كيف استطاعت ان تصرع غريمتها وتفوز بالمال وتحقق جانبا عظيما من أحلامها

وأصبحت مدام باكو ـ وأصبحت ربة المنزل والحان . تجلس أمام الزبائن جلسة سيدة وتأمر فتطاع . ولاأحد يجسر على التعريض بها

وكيف كان يمكن ذلك وهى تعمل وتجد وتسعى غير حافلة بالرجال وكلهم بها معجب مفتون

واشتدت وطأة داء المفاصل على الزوج فكانت تخدمه وتسهر عليه وتتعهده كأنما هى حقاً تخشى عليه الموت وتخاف العزلة والتبتل من بعده

وقرت نفس الشيخ بعواطف الطيبة والرحمة والاخلاص تسكبها فى فؤاده هذه المخلوقة الحسناء الصبية العاملة التى أنسته قرينته الأولى وخففت عنه عبء شيخوخته ولم تأسف على شبابها الناضر يذوب ويضمحل بين جدران بيت موحش تكتنف جنباته الظلمات !

وفي ذات يوم والريح تعصف في الخارج وابواب البيت ونوافذه ترتج وتتضارب والمطر ينهمر والرعد يدوي دخلت امرأة من نســـاء القرية وأخبرت مدام نيليتا بمقدم تونيه

اضطربت بالرغم منها وعلا محياها الاصفرار وأشاحت بوجهه الحظة ثم صرفت المرأة واعتمدت رأسها بيدها وأخذت تفكر . . .

خامرها احساس عجيب بالفرح . وأحست كأن قلبها الخاوي يمتلىء فجأة وكأن الاحلام القديمة تنبثق من اعماق خاطرها وتمر امام ناظريها وتمتلك عليها مشاعرها وتخيلها عذراء كما كانت أيام البؤس والهوى

تقدمت الى المرآة وتطلعت برهة وجعلت تحدق في تقاطيعها وتصلح من خصلات شعرها وتتأمل ما اذا كانت لاتزال جميلة ام ان هذه الحياة قد أجهزت على البقية الباقية من سحرهـــا

ولكنها شاهدت وجهاً ناضراً . وعيوناً فاتنة . وخداً مورداً وبهجة طارئة شائعة في كيانها كله

فابتسمت ابتسامة فاترة وتمطرت وتجملت وألقت على كتفيها وشاحاً من حرير اسود ونزلت الى الحان تخطر وتتهادى

وما ان وطئت قدماها عتبة الباب حتى تراجعت وشحب لونها وخفق فؤادها خفقاناً شديداً وجمدت بغتة لاتستطيع حراكا

رأت في وسط الغرفة حبيبها القديم تونيه واقفا ينظر اليها ضاحك السن منبسط اليد وقد انسكب عليه جمال جديد لم تكن لتحلم به أبدا

ألفته وقد ازداد رجولة . وازداد ثباتاً . وازداد عزة وكبرياء وسلطانا فتقدمت اليه على مهل وصافحته ويدها ترتعش وعينها لاتفارق عينيه

جاذبها أطراف الحديث وقص عليها بعض نوادر المعسكر وأشاد ببطولته في المستعمرات وهي تستمع اليه بأذن مرهفة ونفس ظمأى تنهل عباراته وترتوي منها وشعر الشاب أنها اكتملت وازدهرت محاسنها فنسي نفسه وظل بقربها ساعة كاملة وساعدهما الحظ فلم يطرق الحان انسان

وفيما هما يتحادثان إذا بالباب يفتح ويدخل الاب باكو تراجعت نيليتا وصمتت . وأجفل تونيه ولكنه أقبل على الشيخ فحياه أحسن تحية . وأخـــذ بيده فأجلسه فى مقعده . وطارحه النكات . وقدم له كأسا على حسابه . وقص عليـــه هو أيضا أغرب نوادر الجيش . . .

ولما سأله الزوج أية مهنة سيحترف وماذا ينوى أن يعمل . أجابه أنه قد حن إلى الصيد وأنه ماجاء إلى هنا إلا ليتفق معه على العمل سويا . . .

دهش الأب باكو واستوضح الشاب جلية الأمر فقال تونيه أنه مستعد للعمل لو أمده الشيخ بالمال اللازم لابتياع القوارب والشباك . أما الربح فيكون مناصفة بين الاثنين وأما الخسارة فيتحملها الفريقان معا

فكر الزوج لحظة ونظر إلى الشاب نظرة فاحصة وخيل اليه أنه يستطيع القيام بهذا العبء الشاق

وتمثل المشروع الجديد وأرباحه الوفيرة وقوة هذا الشاب الذى سيعرف كيف يستغلها ثم التفت إلى امرأته يسألها رأيها فأيدت الفكرة وامتدحت تونيه وشجعت زوجها فقبل الشيخ وتعهد بدفع المال اللازم لشراء القوارب والشباك

ولم يكد يمضى أسبوع واحد حتى بدا تونيه يباشر مهنته

وفرح بمقدمه أهل القرية واستقبلوه الخم استقبال وهنأوا الأب باكو على حسن اختياره وتنبأوا له بالنجاح العظيم . أما تونيه فالف الذهاب الى الشيخ والتردد على الحان . ومقابلة نيليتا . والسهر هناك وقضاء اوقات الفراغ فى احتساء الخمر من يد محبوبته

كان يغافل الزبائن ويغازل المرأة . ويغافل الزوج ويطارحها الغرام . ويظل يطوف بها مداعبا متوسلا ملحفاً . وهى تروغ منه وتتمنـــع عنه احرص ما تكون على نعمتها تخشى إن هى استسلمت اليه ان يفتضح أمرها فيحرمها الزوج من نصيبها فى اوقافه وتفقد الثروة التى كافحت وتكافح فى سبيل الاستيلاء عليهـــا

ولكنها كانت تحب تونيه . ولا تطيق فراقه . وتتعذب بالعاملين القويين : عامل الحب وعامل الحرمان

لذلك بذلت كل مافى وسعها للاحتفاظ بالشاب فجعلت تمنيه بحياة المستقبل يوم ان تموت الشيخ البغيض . ويخلو لهما الجو فيتمتعان بالراحة والثروة والحب

ولكى تودع الثقة فى نفس الزوج أخبرته انها نشأت فى منزل تونيه وأنه بمثابة أخ لها ولا خوف عليها منه . بل لاخوف على المرأة الفاضلة من أحد ...

ولم يكن ماضيها الزوجى ليساعد الأب باكو على الشك فيها . ولكن المرأة الدساسة الواشية التى طعنت فى صميم كرامتها — مدام ساماروكا — كانت لاتنفك تفد الى البيت وتخالس الحبيبين النظر الشزر وترود حولها وتختلى بالزوج فتصب فى اذنه سم النميمة والغيرة . فيثور ثائر نيليتا وتستنكر وتسخط وتتأبى ثم تطوق الشيخ بذراعيها الناضرتين وتبتسم له ابتسامة حلوة فينسى

وضجر تونيه من هذا الاسلوب فى الحياة . وبدأ يتألم لاحساسه بأن المرأة التى يهواها قريبة وبعيدة . محبة وغير محبة . قاسية ورحيمة تعلله بالسعادة المنتظرة بينا هو الساعة كاشقى مايمكن أن يكون انسان . وكاشفها بدخيلة قلبه وصارحته بما فى نفسها وإذا بها مثله تتألم وتناضل وترجو اليه أن يتمهل ويفهم ويقدر

ومرت الايام وتونيه يزداد عذابا . ونيليتا تشفق عليه وتطيب خاطره . وتعده خيرا . ثم تودعه وتصعد الى حجرتها وتظل تفكر والحسرة تملأ فؤادها والعجز يهتاج أعصابها . والغيظ من حياة زوجها الطويلة يطوح بخواطرها الى مسارح بعيدة ترقص عليها أطياف الجريمة والحب والحرية !

وفى ذات صباح وقد أمضتها العزلة وبرح بها الألم وأنفت نفسها قرب الشيخ المريض وعز عليها كيف تفرض على من تهوى العذاب فرضا استوت على فراشها ونضت عنها ثوب الليل واسرعت فارتدت معطفها وانبأت الزوج أنها ستخرج الى الصيد اليوم صحبة تونيه كى تراقبه وتستوثق بنفسها ما اذا كان أميناً فى معاملاته . مخلصا لهما كما يزعم

والتقت بالشاب فما ان رآها حتى صاح كالمجنون ولكنها وثبت وثبة كبيرة واذا بها فى القارب تقهقه ويدها الرقيقة تعبث بماء البحيرة البارد الشفاف

واحتملهما التيار . وكان الجو صحوا . والنسيم عليلا . وانغام العصافير تتصاعد فى الفضاء . وضحكات المرأة ترن وتتعالى . والقارب يشق عباب الماء . فلم يكن

اليوم يوم عمل بل كان يوم غرام ورجع تونيه الى القرية صفر اليدين الا من سعادته فاعتذرت عنه نيليتا وأقنعت الشيخ أنهما لم يوفقا وان الشاب يرعى مصلحة شريكه حق الرعاية . . .

وكانت نزهة القارب هذه سبيل التهلكة

ضعفت نيليتا وطاوعت الشاب فزلت بها القدم. وما ان علمت مدام ساماروكا بالأمر حتى طافت ببيوت أهل القريه . تقص عليهم الحادثة وتهولها وتضيف عليها من عنديا تها بما تشفي به غليل بغضها وانتقامها

ولكن الزوجة لم تعبأ وكما أسدلت غشاوة على عينيها . فاهملت العناية بزوجها وانصرفت الى مرضاة نفسها ولم تعد تفكر الا فى عشيقها وفى لقياه وفى الجلوس اليه وفى محادثته وفى الثار الماضى الطويل الذى تقضى بين لهم والمرض والشيخوخة والشقاء

ونشأ عن ذلك ان استفحل الداء فى جسم الأب باكر فاستدعى الطبيب فنصح له بالانتقال الى قرية أخرى تبعد عن هذه بضعة أميال

حاول ان يصطحب زوجه ولكنها رفضت بحجة ان أقاربه هناك . وانهم يبغضونها لفقرها . وان كرامتها تأبى عليها العيش فى وسط يحتقرها ويعدها دونه حسباً ومالا

ورحل الزوج بمفرده وبقيت نيليتا . وما ان أبصرت نفسها فى البيت وحيدة حتى كادت تجن فارسلت تستقدم اليها تونيه وهى لا تدرى أنها تحفر بكلتا يديها القبر الذى ستلحد فيه غرامها الاول والاخير !

شاعت الفضيحة فى القرية . واضطربت الافكار وأمعنت ساماروكا فى الوشاية وتبعتها كل فتاة عانس صلبة القلب غليظة العاطفة فانعقدت حول المرأة وعشيقها سحب كثيفة من المثالب والمطاعن ومختلف ضروب الاهانات والتحقير

وكان ان أحس الزوج بالمرض يشتد وينذر بالموت القريب وأخبرت ساماروكا أن الشيخ فى خطر فاستقلت القطار للحال وأسرعت اليه تقص عليه ما وقع ولكن صديقة لنيليتا علمت بما كان فابلغتها النبأ فادركت الزوجة أن غريمتها

تواصل مسعاها لتحرمها من حقها فى أوقاف زوجها فهالها الامر وتركت عشيقها يرغى ويزبد وخرجت تحت جنح الظلام والقرية هادئة . والريح تصفر والناس نيام وسافرت الى حيث يقيم زوجها

بلغت المنزل وقد أوشك الليل ان ينتصف فسمعت لغطاً شديدا . وحركة غير عادية وجلبة ومناقشة وضوضاء . فدخلت وما ان توسطت رحبة الدار حتى التقت بساماروكا وجها لوجه فتصاعد الدم الى رأسها وفقدت رشدها وانهالت على عدوتها لطما وركلا وعضا بأسنانها وتمزيقا بأظافرها والمـــرأة تصرخ وتستغيث وتولول

وخرج أهل البيت على الصياح ففرقوا بين المرأتين واقتادوا نيليتا الى فراش زوجها فما ان رأته حتى أجهشت بالبكاء وأقبلت عليه تقبله وتؤاسيه وتلومه أشد اللوم على انقياده لتلك الفاجرة ونكرانه جميل زوجه وعظيم تضحياتها

وانتصرت نيليتا نصرا أشبه بالهزيمة فلم يحرمها زوجها من نصيبها فى الوقف بل وهبها اياه مشترطا فى وصيته ان يصرف اليها المـال مادامت لاتتزوج أما اذا تزوجت فتحرم منه . . .

وفى صباح اليوم التالى توفى الاب باكو فعادت نيليتا الى القرية واتشحت بالسواد وتصنعت الحزن والرصانة واليأس العميق . واعتزمت الا ترى تونيه طوال مدة الحداد ريثما تهدأ العاصفة وتكف الالسنة عن النقد والتشهير

ولكنها لم تستطع . فبعد شهر مضى لم تلق فيه حبيبها أصيبت بشبه خبال فكانت تطوف بغرف البيت تائهة والهة حيرى . تستعيد خيالات الماضى فتحن الى السعادة الضائعة فيثور ثائرها على نفسها والقرية وزواجها الخاسر الملعون

وعاد تونيه اليها وملء قلبه الفرح . فأعماها الحب مرة أخرى عن رؤية الحقيقة وكانت ساماروكا تراقبهما وتقتفى آثار الشاب ليلا فتراه يتسلق جدران البيت فتسرع الى صديقاتها وتخبرهن بما يقع

وفى ذات مساء احست نيليتا والرعب يمزق فؤادها والظلمة تغشى عيونها انها ستصبح أماً

طاش صوابها ولم تدر ماهى فاعلة . وكان عليها أن تنزل يومياً الى الخان تجالس

الزبائن وتحاسب وتأمر وتنظم وتعمل

فكانت لاتلبث أن توصد ابواب الخان حتى تهرع الى غدعها فتبكى بكاء طويلا وتعض أصابعها غيظاً ولوعة . وتظل ساهرة تفكر حتى الصباح

وأخيراً ساعدها القضاء ووضعت غلاماً فما أن شاهدته حتى أيقنت أن كل مابنته قد يتهدم فى هذه اللحظة . لم تشعر لابالامومة ولا بالرحمة . لم تقبل الطفل قبلة واحدة . بل رفعت بصرها الى حبيبها الشاحب اللون المهذب المنتفض وأمرته أن يأخذ الطفل ويذهب تواً الى البحيرة فيلقى به فيها !

جثا عند أقدامها يسترحم ويتوسل . يذود عن حياة ابنه المعبود ثمرة حبه ورمز هواه ولكنها صاحت به زاجرة مستنكرة . وخيرته بين الطفل وبينها وهددته بالقطيعة التامة ان عاش الغلام ساعة واحدة ايضاً

دهش تونيه لفرط ماهى عليه من وحشيه وقسوة . الا نه كان يحبها فامتثل لها واحتمل ولده فقبله قبلة طويلة حارة ثم القى به فى الماء والدمع ينهمر من عينيه !

وعاد اليها ملتهب الاعصاب . محمر العينين . ثائراً ناقما وقد استحال حبـــه العميق إلى بغض هائل . أدرك فى النهاية أن هذه المرأة لم تحب وان تحب أحدا لا ابنها ولا أى إنسان بل تحب المال ، المـال وحده . وتضحى فى سبيله بانبل العواطف واسمى الاحساسات ففر من أمامها . فر والـكره يطارده والجريمة تعصف به وتبكيت الضمير يلاحقه وخيال ابنه يتراءى له عن بعد فيجوب الشوارع ويرتمى فى عرض الطرقات ويهذى ويضحك ويبكى كمجنون

وكان عليه ان يذهب إلى البحيرة فى الغد ليصيد الطيور صحبة جده فحاول أن يتخلف ولكن الجد اجبره إذ العمل مقدس ومادام فى المرأ نفس يتردد فعليه أن يعمل دون كلال .

مشى الرجلان الى البحيرة المشؤومة وتونيه يرتجف ويشيح بوجهه ويتعثر والجد يلحظه مفكراً فى أقوال ساماروكا متردداً فى تصديقها ساخطاً على حفيده السخط كله

ولاح طائر فى الهواء فسدد تونيه سلاحه وأطلق النار فسقط الطائر فى جوف الماء وللحال قفز كلب الصيد وهبط البحيرة وبدل ان يخرج بالطائر برز قابضا

بين اسنانه على جثة الطفل منتفخة شوهاء يقطر منها الماء فما ان رآها تونيه حتى تراجع وصاح صيحة هائلة ثم صوب سلاحه وأطلق فاصاب الكلب فسقط فى البحيرة وسقطت معه الجثة وغاب كلاهما عن الابصار

ارتعدت فرائص الجد وذكر ما قالته سماروكا وأدرك بسليقته المتوقدة كل شىء . فاقترب من حفيده وأمسك به وهزه من كتفيه ولكن الشاب تملص منه ودفعه عنه ودنا من حافة البحيرة وصوب السلاح الى صدغه واطلق النار فهوى جسمه فى البحيرة يدوى دوياً مفزعاً

لم يذرف الجد دمعه واحدة . لم يأسف على حفيده . لم يشك ولم يتململ . بل نصح لابنه بالصمت والاحتمال والصلاة . ولم يشأ أن يتهم المرأة ولا أن يثأر منها مخافة أن يشيع الفضيحة بنفسه وأن يلوث بيديه شرف الاسرة التى حافظ عليها جهده ولكنه ذهب الى نيليتا . دخل عليها أصفر الوجه مشعث الشعر لامع العينين وصرخ فيها أن البحيرة قد انتقمت له وانها التهمت الوالد والولد !

ثم خرج لايلوى على شىء

صعقت المرأة . وحملقت فى فضاء الغرفة كبلها . وانتفضت انتفاضة شديدة

ثم تلفتت حولها واذا بالبيت جميل . والأثاث فاخر . والأثواب ساحرة والمال يتدفق عليها كسيل منهمر

ولكن الآن . . . الآن . . . ماذا يفيد كل هذ ؟ . . .

ماذا تجدى أموال العالم جميعاً بعد أن ضاع كل شىء ! . . مات حبيبها ومات ابنها ومات شبابها ولم يبق الاان يجهز القضاء عليها ايضاً لتستريح !

ولكن القضاء يأبى هذا . يأبى الا ان تحيا لتذكر وتتألم وتكفر !

السمفونيا الريفية (١)

Symphonie pastorale

لاندريه جيد

نغمة رقيقة عذبة فيها شجو وفيها أنين . . .

نور تتخلله ظلمة ندية خفيفة تكسبه فتنة عميقة كفتنة أيام الشتاء الممطرة

مزيج من الاحساس بالرحمة والشعور بسخرية القدر ، خير يولد شراً وشر يبعث في النفس أروع مظاهر الخير

كل هذا في اسلوب بسيط لامع يترقرق في اتئاد حالم كماء الغدير

تلك هي الالوان التي مثلت امامي وشعرت بها لدى مطالعتي قصة (السمفونيا الريفية) للكاتب الفرنسي الكبير اندريه جيد.

وأنا أن حدثتك عنها أيها القارىء فانما أحدثك عن نفسك ونفسي وعن مبلغ حاجتنا الى الجمال ورغبتنا في امتلاكه . وعن غدر الطبيعة بنا وعبثها باوضاعنا الاجتماعية وشرائعنا ونظمنا في سبيل أقرار أحكام الغريزة النزاعة ابداً الى الحرية المطلقة في العواطف والميول ولو على انقاض الفضيلة وانقاض أحب الناس وأقربهم الينا

فقد يعتنق المرأة فكرة جليلة . أو يخضع لنواميس المجتمع . ويرضى بما تواضع الكل عليه ويقضي اثمن أيام الشباب في تهذيب عقله . وترقية وجدانه . وصقل روحه . وتطهيرها من مختلف شوائب الدنس ليطاول مثلا خلقياً أعلى نادى به الاخلاقيون وشادت به الكتب المقدسة . فاذا ما أقبل على الكهولة وتمشت في جثمانه ارادة العدم وشارف لحده الضيق عن بعد خالجه الشك في آرائه ومبادئه

---

(١) السمفونيا هي قطعة موسيقية موضوعة لمجموعة آلات الاوركسترا

واستفاقت فيه بغتة قوى الحياة المدخرة واحس بالفراغ الرهيب يكتنفه واستشعر الحسرة العميقة على السنين الضائعة فى غير ما لذة أو متعة فراح يدمر الهيكل الذى ابتنى . وراح يسخر باشباح الفضائل التى ضيقت آفاق حياته . وحبسته فى سجن من العواطف واحالته آلة مسخرة لخدمة الآخرين

ومن الغريب أن الطبيعة كى تجتذبه اليها . وتظفر به وترده الى أصله الحيوانى الذى منه انحدر تزين له المروق . وتضفى على نزعاته الشاذة الخطيرة حلة طريفة رائعة وتمثل الشر الذى يكره فى صورة الخير الاسمى . وتلقى فى روعه أن الثورة على الفضيلة نعم الفضيلة والانتقاض على الامثلة العليا نعم القوة ونعم الحياة

وقد يتألم الرجل أفظع تألم ويظل يترجح بين سموه النفسانى القديم ، وطغيان هذه الحياة الجديدة عليه فيود أن يثوب الى رشده ويفكر فى ضعفه ويتراجع الى حيث يستكمل مثله الاعلى ولكن الطبيعة — وهى تفتح عينيه على مفاتن لم يكن قد أبصرها من قبل — تلوح له بالموت القريب وكأنها تهمس فى اذنه أن لاحياة بعد هذه الحياة وان كل شىء باطل ماخلا اللذة الابدية المتدفقة فى وجوده وفى وجود كل حى تقع عليه عيناه

وهذا ماوقع للقس البروتستانتى بطل رواية اندريه جيد

فقد اختاره الكاتب من رجال الدين ليرسم لنا مبلغ مايصل اليه الانسان من قوة فى كبح شهواته . ومبلغ الصراع الذى سوف ينشب بين هذه القوة وقوى الغريزة الجامحة العمياء

كان القس سعيدا بين زوجه وولده وكانت حياته الريفية تنصب فى مجرى هادىء وميوله تتفق وعقيدته وايامه منصرفة لخدمة الاسرة وخدمة الغير حتى دعى ذات صباح لاسعاف مخلوقة تسكن فى طرف قصى من أطراف الجبل المجاورة وتكاد تشرف على الموت

ما ان رآها حتى علت جبينه الوضاح سحابة هم ثقيل ودبت فى قلبه شفقة لم يحس بمثلها لمخلوق

شاهد فتاة ممددة قرب موقد متأجج ، فتاة بائسة هزيلة مصفرة الوجه زائغة العينين منكمشة الاعضاء سريعة اللفتات تجفل لأى ملمس أو صوت نفور امستوحشة أقرب إلى الحيوان منها الى الانسان

تأملها فاذا بها عمياء فاستفسر الجيران عنها فقيل له انها شريدة لا أهل لها ولا مأوى

استفاقت فى نفس الرجل شتى عواطف الرحمة وتنبه فيها احساسه بالانتماء البشرى وكطبيب الجسد الذى تستفزه رؤية المرض فتدفع به سليقته للقيام بواجبه كذلك القس ـ طبيب الروح ـ أراد أن يؤدى واجبه هو أيضا وأن يحارب هـــذه الحيوانية المتمكنة من الفتاة ويبدد عنها ظلمتها ويوقظ جوهر نفسها الساذج على حياة عاقلة جميلة سامية

فاقتادها الى بيته. وأنزلها من قلبه منزلة ابنته . وقام على تربيتها بنفسه . وجعل يحرك فكرها الراقد وينفخ الروح فى جسدها المتوحش ويعلمها كيف تنصت وتفهم وتتحسس وتقارن وتفاضل وتميز بين صوت وصوت وخلق وخلق وجمال وجمال

وأفرغ عصارة جهده فى تعهدها والعناية بها فنجح فى تجربته واستطاعت (جرترود) بعد زمن طويل أن تقرأ فى كتب العميان

فرح سيدها واغتبط وطفق يفسر لها عالم الالوان بواسطة عالم الاصوات ويكشف لها النقاب عن حقيقة مايحيط بها . ويؤلف فى ذهنها شيئا فشيئا فكرة أقرب ماتكون إلى واقع الحياة

ومضى بها ذات مساء إلى حفلة موسيقية . فما أن استقر بها المقام وهبت عليها عواصف النغم وغمرتها الالحان المتوثبة المنوعة فى اتساقها العجيب حتى اختلجت اختلاجا شديداً وأمسكت بيد منقذها واشرأبت بعنقها الغض نحو هذا العالم الجديد

وكانوا يعزفون (السمفونيا الريفية) لبتهوفن فخيل الى جرترود أن القرية التى أحست بها هادئة وسنانة حالمة تعيش الآن أضعاف حياتها وتضطرب وتموج بغابة من تلك الغابات الكثيفة الشاسعة التى طالما حدثها عنها سيدها . سمعت زفيف الرياح .ودوى الرعود ، ولعلعة البروق . وهطل الامطار ومسير الجدول . وهدير الموج . ونعيق البوم . وتناغى الطير وحفيف الشجر . فذهلت وعراها شبه خبال وجعلت تلاحق بفكرها النغم القافز وتذكر أنها سمعت مثله فيما مضى . وتستعين بسيدها على معرفة اسم المظهر الطبيعى الذى يعبر النغم عنه !.

وكانت الموسيقى من العمق والصدق وقوة التعبير ودقته بحيث هزت طبيعة

الفتاه من اعماقها . وحركت هامد عقلها وصبت على الظلمات الطائفة بها سيلا متوهجا من نور ! . .

أجل وقعت المعجزة . وأيقظت الموسيقا بصيرة العمياء فـ « أبصرت » ! . .

أبصرت الدنيا بأفراحها المتهللة وألوانها المتمايزة وعرفت ماهى الغابة وماهى القرية وماهى العاصفة وباتت تفرق بين شجرة وشجرة وزهرة وزهرة وطائر يرف على الجدول وآخر يشق اجواز الفضاء

وكاد يجن القس من فرط الفرح وأدرك انه فاز على الطبيعة العاتية وانتزع من جوفها المدلهم هـــذه الروح الشابة المظلمة وأسلمها الى الله ، إلى عالم الحقيقة والجمال والخير ! .

وسرت فيه نشوة الظفر وافقدته اتزانه القديم

وشبت الفتاة على يديه وترعرعت واشرق ذكاؤها واتقد فاضطرب الرجل وألفى نفسة يفتتن لا بانبثاق نور المعرفة فى مخيلة العمياء فحسب بل بتألق أضواء الشباب على بدنها المزهر أيضا . . .

لم يعجب بميلاد الروح فحسب بل بميلاد الجسد أيضا !

ولم يستطع — وهو العاقل البصير — ان يميز بين فتنة الجســـد وفتنة الروح !

وغافلته الطبيعة ونزلت به من علياء حلمه وادنته الى الارض ثم ألهبت فى كيانه المضطرب عناصرها الاولى . فاختلطت الحقائق فى نظره وبات لايدرى اين هو الشر وأين هو الخير . بل أين يبدأ الشر وأين ينتهى الخير

وكان الذى أرادته المقادير وشغف الرجل بالفتاة شغف الفنان بالملحة التى ابتدعها . وأولعت به الفتاة ولع الخليقة بخالقها .

احبها وتلقت حبه فى هدوء وصفاء .

ولم تكن تدرى عن الشر شيئا لأنها مارأت فى حياتها شيئا ولاسمعت بالشر قط . لامن فم سيدها ولا من أفواه الاخرين

كانت تعيش فى الباطن وكان باطنها نقيا نقاء زنبقة بيضاء .

فأحس الرجل ان السعادة أقبلت عليه فى النهاية وان فضيلته الصارمة الضيقة قد حالت بينه وبين الفرح . فرح الحياة مقدس . وان من واجب كل انسان ان ينشد السعادة ويفرح . وان هذا هو الخير بعينه مادامت الطبيعة تبيحه وما دام المخلوق الذى نحبه يجيبنا اليه ويرتضيه

وتمكنت منه العاطفة فهجر زوجه وانصرف بجمعه الى الفتاة . فأحست قرينته بالغيرة تنهش قلبها وأدركت ان هذه الفضيلة النفعية لن تؤدى الى خير أبداً .

وكان ان خلب حسن (جرترود) لب الفتى جاك فأحبها وفطن الى مابينها وبين والده من غرام أثيم لو أتيحت له الفرص لينمو فقد يطوح بكل كرامة ويذهب بكل شرف وقد يحطم بنيان الاسرة تحطيما

ثارت ثائرة الابن على أبيه واستنكر الشاب كيف احل والده لنفسه خيانة معتقده وكيف ضعف وهوى ، فلم يطق الوالد سماع هذا التقريع واستشعر من خلفه الغيرة تغلى فى صدر فتاه فاقصاه عن البيت وحال بينه وبين رؤية جرترود

وخلا للوالد الجو وظن أنه قد ذلل العقبات وفاز مرة أخرى ولكن القدر أبى إلا ان يغدر به ثانيا

وأراد ان يتم صنيعه ويقنع نفسه ان حبه لجرترود ان هو إلا مظهر من مظاهر الطيبة والرحمة فارسل بها الى طبيب فى لوزان أجرى لها عملية استعادت الفتاة بعدها البصر

وما أن عادت إلى القرية ووطئت أقدامها عتبة البيت ورفعت عينيها الضعيفتين المرفرفتين الى سيدها وزوجه حتى شعرت بوجود الشر فى هذه الدنيا . . .

شاهدت الغضون القاسية العميقة تجتاح وجه الزوجة وأحست بالعذاب الخفى يطل من حدقتيها ويرن فى صوتها ويستصرخ ويتوسل

فوجمت الفتاة وأطرقت تفكر وفهمت بغتة جريمة الزنا . . .

وهالها ماوقع بسببها فاختلجت بغتة واستدارت وخرجت لاتلوى على شىء

وعندما بلغت النهر انحنت وتظاهرت باقتطاف الازهار ثم ألقت بنفسها فى فى جوف الماء . فأسرعوا اليها وانتشلوها وحملوها الى البيت وأرقدوها على الفراش

وحاولوا جهدهم انقاذها ولكن الطب لم ينفع فيها ولا الحب . !

وكان سيدها واقفاً بجوار سريرها فتحاملت على نفسها واستوت على ذراعيها وتطلعت اليه وغمغمت تقول :

ـــ عندما انفتحت عيناى على النور بدا لى العالم أجمل بكثير مما كنت أتصور ولكنى وا أسفاه أبصرت الهموم مخيمة على جباه الناس جميعا ! . . .

وصمتت لحظة وكأنها تحلم ثم عادت تسر الى سيدها قائلة :

ـــ الآن فهمت قلبى . هو ابنك جاك الذى أحب . ما أن رأيته حتى أحببته . أحببته لأنه يشبهك تماما . . . يشبه الوجه الطاهر الذى كنت أتخيله لك ! . .

وخفت صوتها بغتة ورفت أهدابها وشهقت شهقة طويلة واسلمت الروح !

* * *

تلك هى القصة ، قصة رجل أحب الفضيلة حبا خياليا مفرطا خنق فيه قوى العاطفة والغريزة . ثم أحب مخلوقة عزيزة أراد أن يهديها عن طريق الحق والخير والجمال الى الله ولـــكن حبه وكهولته غدرا به وبعد ان كان يرى الفضيلة فى قتل غرائزه وكبح عواطفه رآها على النقيض فى ارسال تلك العواطف على سجيتها والاعتقاد أن فى تمجيد الحياة وافراحها تمجيدا لله الذى أوجدها

ومما لا ريب فيه أن هذا حق . حق على شريطة ألا نتافق فيه وألا يحدث التمتع به ألما لاحد . . .

ولـكن الرجل تألم . والزوجة تألمت . والولد أيضا . أما الفتاة المسكينة فراحت ضحية الجميع !

ونحن أمام هذا الختام الرائع نقف حيارى ! ونتساءل :

انقبل الفضيلة بحدودها الضيقة فننفصل عن الحياة . أم نقبل الحياة بافراحها الغادرة فنحدث الألم للغير ؟

أين ، أين هى الحقيقة ؟ . . .

اسرة بنوا

LES BENOIT

لادمون هاروكور

ادمون هاروكور بدأ حياته الأدبية كشاعر غنائى فأصدر ديوانه المشهور (الروح العارية) وأردفه بقصة (الأصدقاء) ثم بدرامة مثلت على جميع مسارح أوربا وهى (العذاب) التى يصور فيها آلام عيسى المسيح . أما القصة التى نلخصها هنا فهى أروع وأجود ما كتب . وادمون هاروكور يمتاز من بين الكتاب الفرنسيين بذهن صارم عنيد ، وارادة جبارة ، وملاحظة دقيقة ، واحساس قوى بآمال الغير وآلامهم فهو يجمع الى التحليل النفسانى العميق رحمة انسانية واسعة كبعض كبار كتاب الروس

كانت زوجة والدها تعاملها أسوأ معاملة . تنتهرها أمام الاغراب ، وتفرض عليها العمل يوم الأحد أيضا ، تزدريها وتضربها وتحرمها من الحلوى ولا تجد لذة إلا فى تحقيرها أمام صديقاتها اللواتى كن ينظرن اليها إذذاك بعيون ملؤها التهكم والشماتة والقسوة

ولم تكن تجد فى والدها نفسه ماينزع اليه قلبها من عطف وحنان ، فقد كان عبداً لامرأته يتأثر بأقوالها ، ويستمع لنصائحها ، ويصدق ماتقول عن ابنته ، ويرى فى ذلك مرضاة لها واقراراً للسكينة فى البيت . . .

وظلت (بنوات) الصغيرة تقوم بنفسها على شؤون المنزل ، تخرج الى السوق لشراء مختلف الحاجيات ، تحمل السلة الثقيلة على ذراعها الضامرة الزرقاء ، تغسل الآنية وتنظف الارض ، فاذا ماخانتها القوى لحظة وقبعت فى زاوية تستريح

عاجلتها زوجة والدها بركلة أو صفعة تعيد اليها نشاطها المألوف

أمعنا فى إذلالها وما أن بلغت الثانية عشرة حتى ارغماها على العمل فى الخارج لتكسب قوتها فاشتغلت كخادم فى أحد البيوت . ولكنها أحبت هناك كلبا صغيراً كانت تغافل أسيادها وتنفرد به وتطعمه قطعاً من السكر ، فظنوا أنها تسرق السكر وترسل به الى أهلها فطردوها فعادت حيث كانت فآوتها زوجة أبيها تقريعاً وضرباً ، فلم تطق وتركت البيت هائمة على وجهها وظلت شاردة حتى اجتازت القرية كلها . وبينا هى تمشى على غير هدى أبصرت فتاة طويلة القامة رقيقة المحيا ، تحمل فساتين ملونة زاهية لم تحلم قط (بنوات) ان ثمة أمرأة فى الدنيا يمكن أن ترتدى مثلها . . .

أخبرتها الفتاه انها تعمل كخياطة عند سيدة فاضلة وانها يتيمة الابوين وتسكن حجرة لطيفة ضيقة الا ان فيها مع ذلك متسعا لاثنين . . .

شكرتها بنوات من صميم قلبها وعرضت عليها الفتاة ان تعمل معها فقبلت وعلى شفتيها ابتسامة فرح وغبطة واخلاص

وكانت بنوات فتاة طيبة السريره ، صافية النفس ، ساذجة الى أبعد حد ، تمر برذائل الناس وشرورهم دون ان تتأثر بها أو تأبه لها أو تحاول ان تتبين دقائقها ، شقراء الشعر ، زرقاء العينين ، ناصعة الجبهة ، مثال حى من أمثلة الجمال والشعر

أما صديقتها (جبرييل) فقد كانت ذكية ، ماكرة لعوباً ، تنفذ ببصيرتها الى صميم الاشيا ، ثم تطيل التفكير فيها ، وتجد أكبر لذة فى معرفة الحقائق التى تخشى الفتاة عادة انعام النظر فيها

وكانتا تخرجان الى النزهة فتبطىء جبرييل فى السير وتتلكأ ، وتقف بواجهات المخازن تعجب بالاثواب الجديدة ، وتنقدها ، وتلفت نظر بنوات اليها ، وشهوة الترف تلمع فى حدقة عينها ، والفتاة تتطلع وتضحك ولا تفهم تلك الأهمية العظيمة التى تعلقها صديقتها على أمثال هذه الشؤون التافهة . . .

أما الشبان فكانوا يلتفون حول جبرييل ولا يحفلون بالمسكينة بنوات تفتنهم من الأولى خفة روحها ورشاقتها وحلاوة حديثها ، وتصرفهم عن الثانية رصانتها .

وكبرياء نفسها ، وبساطتها الفطرية التى لم يهبط لأى منهم ان يحس روعتها ويفهمها !

وكانت تشعر بنوات بسحر جبرييل وترى نجاحها العظيم فى استمالة قلوب الشبان ، واقبالهم عليها ، وعنايتهم بها ، ولكنها لم تكن لتغار منها أو تحسدها أو تحاول أن تستلب منها عشاقها

وهل كانت بنوات فى حاجة إلى ذلك وهى التى ترفرف بروحها بين السماء والارض ، وتحلق فى عالم أثيرى لاتصل اليه آثام الناس ومفاسد المجتمع . لقد كانت تكتفى بسعادة العمل ، ونشوة الحياة ، ومرح الحرية ، وهدوء القلب ، وما تتفجر به ينابيع نفسها من طيبة عميقة ورحمة واسعة

وعاشت برفقة صديقتها سنة كاملة . تعمل فى الصباح معها . وتنام فى الليل بجوارها . أهنأ ماتكون بالفرنك الواحد الذى تتقاضاه من الخياطة كل يوم

وكانت تقدس جبرييل ، وتعجب بها ، وتشعر بفرح عظيم كلما رأتها وحولها سرب من الشباب يمتدحون جمالها أما جبرييل فقد أغراها الاطراء ، وأخذت بلبها مفاتن الحرية ، وأحست بنجاحها فى اجتذاب القلوب فتاقت نفسها الى استكمال محاسنها ، وارواء غلتها من شتى مناعم الترف التى تشاهدها فى الحياة العامة بعينين مشدوهتين

بدأت تهجر رفيقتها ، وتتغيب فى المساء عن موعد النوم ، وتسهر كشاب طليق حر ، وبنوات تنتظرها ، حائرة قلقة مضطربة لايغمض لها جفن

وتمكنت هذه العادة من نفس جبرييل فكانت لاتدخل الحجرة الا بعد منتصف الليل مغبرة الوجه ، مشعثة الشعر ، تعبة ، كليـــلة ترتمى على الفراش كجثة هامدة

وفى ذات ليلة فتح الباب وأبصرت بنوات صديقتها شاحبة اللون ، غائرة العينين ، فاقبلت عليها مستفسرة فما كان من هذه الا أن طفقت تبكى أحر بكاء وتقول ان شقيا خدعها واغواها ، ومناها بالزواج ثم اعرض عنها ، وها هى منكودة منبوذة ضعيفة ، تحمل فى احشائها ثمرة ذلك الهوى المشؤوم ! ..

لم تفهم بنوات حق الفهم كلام جبرييل فقصت هذه عليها قصة غرامهـــا ، وشرحت لها الدقائق والتفاصيل ، فشعرت بنوات بخطورة الأمر ولبثت تفكر لحظة . ثم استوت فى مجلسها وحدقت فى رفيقتها وقالت انها ستطلب الى الخياطة عملا إضافيا تضاعف به دخلها اليومى ما استطاعت لتتمكن من الانفاق على صديقتها أيام الوضع فاذا ماانتهت ، رجعت جبرييل الى العمل ، واهتمت المرأتان بتربية الطفل

وذهبت الأم الى المستشفى ووضعت طفلها . ولكنها أصيبت عقب الوضع بمى نفاس شديدة أودت بحياتها

ذعرت بنوات للخبر ، واسرعت الى المستشفى فشاهدت صديقتها المعبودة جسما لا حراك فيه وابصرت الطفل يلوح بقبضيته الصغيرتين ويبكى فكاد يتمزق فؤادها حسرة فما كان منها إلا أن توسلت واسترحمت بغية ان يعطوها الطفل لتتولى أمر تربيته بدل أمه التعسة فأجابوها الى سؤلها وسلموها إياه فحملته بين ذراعيها وجعلت تقبله وتناغيه وتدهدهه ثم خرجت به وفى نفسها شعور عميق بأن حياتها قد أصبحت ذات معنى ، وان فى وسعها الآن أن تعيش وتكد وتتألم فى سبيل مخلوق ليس له فى العالم غيرها !

وكانت تقترعلى نفسها وتقتصد جهدها لتنفق على تعليمه . وشب الفتى وترعرع وجاز فصول الدراسة الأولى ، واشتهر بين إخوانه بالذكاء الخارق ، والاجتهاد والدأب . فكان لزاما على والدته ان تستأنف تعليمه ، ولكنها لم تستطع تلبية تلك المطالب الجسيمة . والتكاليف الباهظة التى يستلزمها التعليم الثانوى

التمست الى الخياطة ان تقرضها مبلغا على الحساب فرفضت ، توسلت الى مدير المدرسة ان يمهلها شهراً فابى ، راحت تستدين من صديقاتها على غيرجدوى : سدت فى وجهها السبل وتنكر لها الجميع فقامت من فورها وارتدت ملابسها . واستقلت القطار الى باريس ظناً منها أنها سوف تجد هناك عند الخياطات الكبيرات عملا ممتازا يعود عليها بالربح الوفير ، خاب أملها وألفت نفسها مرغمة على مضاعفة الجهد لاكتساب نفس المرتب الذى كانت تتقاضاه فى القرية والا زاحمها جيش الفتيات العاطلات وقضى عليها القضاء المبرم

ودفعت بها الحياة الى المهواة مكرهة . ساقها الاعتراف بجميل جبرييل ، والاخلاص لولدها ، الى التضحية بجسمها تضحية كاملة . .

كانت تعمل فى المشغل صباحا وفى الشوارع ليلا ثم ترسل بالنقود الى المدرسة ولاعزاء لها إلا فى مطالعة الخطابات التى كان يبعث بها اليها المدير مثنيا على الفتى أجمل ثناء معللا أمه بالمستقبل الزاهر القريب

وبلغ الشاب التاسعة عشرة من عمره وكانت جبرييل قد دعته (بنوا) تيمنا باسم صديقتها فلما توفيت وشب الغلام وأدرك أنه ابن الهوى المحرم ، ثارت فى نفسه عوامل الـــكمد والأسى ، ومال الى العزلة ، واستوحش ، وزاده نفوراً موقف الطلبة من نحوه ، وتعييرهم له ، وسخريتهم منه ، وقسوتهم واحتقارهم ، ولـكنه كان برغم هذا يحس أعمق الحب لبنوات ، وأوفى الاحترام ، لايكاد يراها مقبلة عليه فى ردهة المدرسة حتى يتقدم اليها باسطاً ذراعيه باسما والدمع يحول فى عينيه

وبينما كانت بنوات جالسة فى المشغل ذات صباح تخيط فستانا رائعاً لغانية من غوانى باريس سلموها خطابا جديدا من مدير المدرسة ماان قرات منه بضعة أسطر حتى أشرق محياها وتهلل

أخبرها المدير أن بنوا نجح فى الامتحان النهائى نجاحا باهراً وان الحـكومة قد تعهدت بالانفاق عليه حتى يتم علومه

أحست المرأة أن حياتها قد تبدلت بغتة . وان العناية رأفت بها ، وأنقذتهـا من التهتك الاجبارى الفظيع الذى كان يسمم عظمة تضحيتها

ومرت الأيام وتخرج بنوا وعين أستاذاً فى مدرسة (فرون) واستقدم اليه « أمه » وعاشا معاً فى مسكن صغير وجميل . وابتسم لهما الدهر فترة ، فكانا يخرجان الى النزهة معاً . تتأبط ذراعه وتتوكأ عليه ويحنو عليها ويرعاها ولا يفكر الا فى العمل من أجلها

ولم يـكن يترك البيت الا الى المدرسـة ، لايخالط أحداً ، ولا يهتم بأحد ، تمر به فتيات القرية فلا يأبه لهن وتقام المراقص والأعياد فلا يحفل بها ،

تعترضه الحسان الماكرات ويحدقن فيه ويداعبنه ويسخرن منه فيتطلع اليهن ذاهلا ثم يلوى وجهه ويهز رأسه كحكيم يستخف بكل شيء

وكان بنوا الفرط ماقاسى فى صباه من اضطهاد الطلبة رفاقه قد شغف بالعلم وأرصد عليه جهوده ولم يعد يجد فى المرأة الفتنة الخطيرة التى تجتذب كل شاب . لم يكن فى حاجة للمرأة وهو الذى يفيض عليه الفكر لذة تفوق كل لذة . ولكن هذا لم يكن ليرضى القرويين فقد كانوا وشاة نمامين خبثاء يدهشهم من هذا الشاب الغريب جموده واتصاله بتلك المرأة الصامتة الوديعة التى يدعوها بوالدته بينما هى صبية فى الخامسة والثلاثين وهو فتى لم يجاوز بعد ربيعه العشرين . . .

حامت حولهما الشكوك ، وأشعلت الفتيات الغيورات نار الفتنة ، واتهم الجميع بنوا انه يعاشر خليلة له ، وان سلوكه لا يتفق ومهنته ، وانه يفسد أخلاق تلاميذه ويضرب لهم أسوأ الأمثال

وشكا البعض الى مدير المدرسة شذوذ هذه الحال . وأوغروا صدره على الشاب ودافعوا عن أخلاق أبنائهم وسمعة القرية فما كان من المدير الا ان أرسل فى طلب بنوا وهدده بالاقالة ان هو لم يتزوج من خليلته . .

عبثاً قص عليه الشاب قصتها ، عبثاً حاول اقناعه أنها بمثابة ام له وانه يحترمها ويقدسها كأعف وأطهر السيدات

وذهب اليها مغموما حزينا وأخبرها بما كان فاسودت الدنيا فى عين المسكينة وخيل اليها أن القضاء عاد يطاردها ، وأنها بدل أن تسعد ابنها قد تجر عليه الشقاء بل قد تهدم فى لحظة هذه الحياة الغالية التى ازهرت على يديها فى سنين

حارت فى امرها ولكن الشاب تقدم اليها وعرض عليها ان يقترن بها انقاذاً لهما واتقاء وشايات القرويين ضعاف العقول غلاظ الاكباد . يقترن بها فى الظاهر وأمام المجتمع الذى لا يرحم ثم يواصلان العيش كوالدة وولد !

طاش صوابها وهالها منه اصراره وأدركت انها لو طاوعته لدفنت شبابه بكلتا يديها . وتوسلت اليه أن يبحث عن فتاة طيبة تشاركه حياته وأن يتزوج منها ولكنه كان مفكر متشائماً يكره المرأة ويمقت الزواج ولا يود أن ينحدر من صلبه الى محيط هذا العالم مخلوق جديد يتعذب ويشقى . كما تعذب هو وشقى

لم تجد بداً من اطاعته فرضيت وقبل ان يعقد له عليها كاشفته بماضيها وكيف انها كانت تنهك لتنفق على تعليمه ، فلم يستنكر ولم يأنف ولم يلم بل انحنى وقبل يدها وطفق يبكي !

وسمت في عينيه وبات ينظر اليها كقديسة شهيدة خليقة بأن يبذل في سبيلها كل شيء

وظن بنوا ان عهد الاضطراب قد انتهى . وانه سيحيا بجوار بنوات حياة رجاء وهدوء . ولكن من الذي في وسعه اكتناه سر القضاء ؟ من ذا الذي في مقدوره معرفة مايمكن ان يجيء به الغد ؟ الاعوام تتوالى ، والاعمار تفنى ، ولا يوم يشبه الآخر بل لا ساعة تشبه الاخرى ، كل قوة تنصب في الابدية ، وكل فرح لا بد مقترن بالهدم

رضي الرؤساء عن بنوا وعينوه ناظراً لمدرسة جديدة في قرية نائية . فرحل اليها وتولى مهام منصبه وأحس أنه سيبلغ في مهنة التعليم شأواً كبيراً لو أنه ظل مثابراً على الجد والنشاط

اطمأنت بنوات ولو أن ضميرها كان يهتف كلما رفعت بصرها وشاهدت ذلك الوجه الأبي الجميل يتقلص شبابه أمام عينيها شيئاً فشيئاً . كانت تتألم في وحدتها ، وتبكي حنقاً وحسرة ، ولا تفتر تغمغم انها المسؤلة عن كل ماوقع وانه كان واجباً عليها أن تفر إلى باريس وترجع الى العمل وتدع الشاب يتزوج ويستمتع بشبابه في صفاء وهناء

واكتنفتهما عزلة القرية وعقد الصمت حولهما جوه الثقيل وأحست بنوات ان لابد من التفريج عن نفس الفتى بارتياد المجتمعات والتعرف الى بعض أسر القرية فكانا يزوران بيت المسيو دورميز ـ مدير ادارة المدرسة الجديدة ـ مرة في الاسبوع وكان للمسيو دورميز فتاة رائعة الحسن تدعى سيسل بسامة الثغر ، طلقة المحيا ، ناضرة الصوت والبدن ، ذات عينين ساحرتين سوداوين وشعر مجعد وشفتين قرمزيتين دقيقتين ،

حادثها الشاب وحادثته ، وكان يعد نفسه قوياً فاعجب بجمالها أعجاب ملاحظة وفكر ولم يحفل به طويلا . . . ولكن تعدد الزيارات والجلسات والاحاديث وعزلة الحياة القروية ، وتشابه مناظرها ، كل ذلك ولد في صدر بنوا شعوراً بالضجر كان لايحس به على الاطلاق ساعة أن يقع بصره على محيا سيسيل البريء

أما بنوات فقد أدركت بسليقتها أن فؤاد الشاب بدأ يتحرك ويلين . وانه جاف حزين بالقرب منها ، رقيق سعيد بقرب سيسيل . فأحبت أن تزيده منها وأن تدنيه من النعيم بقدر ماأقصته عنه فدعت الوالد وابنته لتمضية شهر من شهور الصيف فى ضاحية جميلة

ورحل الجميع جذلين مغتبطين . وفى ذات صباح بيناهم يتنقلون بين المروج الزاهية الخضراء ، والجو لامع ، والنسيم رقيق ، تقدم بنوا وتبعته سيسيل واتأدت بنوات فى سيرها وجعلت تحادث المسيو دورميز

حاول بنوا أن يكر راجعاً وهزم التجربة . حاول أن يقاوم . أن يبحث فى خفايا نفسه عن كرهه القديم للمرأة ، ولكنه لم يجد شيئا . ساقته قدماه على الرغم منه ، وأحس بظل الفتاة يلاحقه فخفق قلبه وارتجف والتفت كالمذهول

رأى سيسيل تمشى متعثرة بين الاعشاب وحياها الطلق يتلألأ . فمال اليها . وأخذ يدها بين يديه وكاشفها بهواه . تراجعت قليلا ولم تتكلم . بل أشاحت بوجهها ، وغضت من بصرها ، ثم اختلج جسمها كله وأفلتت من الشاب وجعلت تهدو مرسلة اليه على اطراف أناملها سربا من القبلات !.

وعاد إلى البيت فدخلت عليه بنوات فألفته جالسا تجاه صورة الفتاة يبكى . فلم تتردد لحظة وأسرعت الى منزل سيسل وانبأتها أنها قد علمت بكل شىء وانها مستعدة لطلب الطلاق من بنوا والانفصال عنه اذا ما كانت سيسل تحبه حقا وتريد أن تقترن به

ذعرت الفتاة اشد الذعر . والتبس عليها الأمر ، ورفضت خوفا من أبيها الرجل المحافظ المؤمن المتعصب الثرى ، عدو الطلاق والمطلقين ، الذى لن يسمح بزواجها إلا من فى موسر مستقيم يختاره لها بنفسه

عادت بنوات وملء قلبها الحسرة . وعز على سيسل ليف تخيب فى حبها الاول وبدأت تشحب وتهزل وتستوحش ، ووالدها يراقبها ويراقب بنوا ، ثم يقارن بين حالها وحاله ، حتى أدرك فى النهاية سر الامر فسخط واستنكر وظنها مكيدة دبرها الشاب للظفر بالفتاة الصبية واتخاذها خليلة والتخلص من الزوجة الهرمة فحرم على ابنته الخروج من البيت وفى اليوم التالى اصطحبها ورحل الى القرية

وهو يلعن الساعة التى تعرف فيها إلى اسرة بنوا !

دب اليأس فى نفس الشاب . وازداد طبعه جهامة ونفورا وتلفت حواليه وإذا بحياته قد خوت من كل جميل ورقيق ، لاأمل ولاعزاء ، لاعطف ولاهوى ، بل ركود فظيع ، جو مخنق ملبد ، ألم دائم عميق عزلة مفعمة بالهواجس والخيالات ، وهذه المرأة . . . المرأة الطاعنة فى السن المرأة التى أحبته وقتلته ، تتألم هى الأخرى أمام عينيه ، تبكى وتطوف بغرف البيت ملتاثة ، تود أن تنقذه ولا تستطيع ، أن ترحمه ولا رحمة ، فتقبع فى زاوية وتظل تنظر اليه نظرات طويلة وتبكى

وبدأت السنة الدراسية وعادا الى القرية وخيل الى بنوات أن العمل سيصرف الشاب عن الماضى وانه سوف يهدأ فتقر هى أيضاً وتقضى البقية الباقية من عمرها تؤاسية وتخدمه

لكن الذكريات لم تبرح خياله لحظة وأنهماكه فى العمل زاده جفوة ومرارة فبدأت أعراض الضعف العصبى تبدو عليه واضحة مقلقة . فاضطربت المرأة . وساورتها المخاوف ، وعاودتها لوثتها القديمة ، فكانت تخاطب نفسها فى وحدتها وتهذى ، ثم ترسم لها أفكارها صوراً مخيفة فتصرخ وتستغيث ،

وانها لجالسة بالقرب منه ذات يوم ، واذا بموزع البريد يسلمه خطابا أبيض ناصعاً لم يلبث أن افتضه وألقى عليه نظرة حتى دفع به الى بنوات وصاح متأوهاً بصوت ممزق مخنوق

علمت المسكينة أن سيسيل قد تزوجت ، وان آخر أمل للشاب قد زال ، وانه لولاها ، لولا وجودها ، لولا ضعفها ورضاها بالحياة معه لكان الآن ينعم كالآخرين بالمرأة التى أحب !

استولى هذا الخاطر على ذهنها ، واحتل كيانها ، وبات كعارض جنونى لاغنى لها عنه ، تتشبث به وتتحدث عنه ، وتضعه نصب خيالها وتعذب نفسها به ويقوض جسمها جزءاً فجزءاً ويعجل بها إلى الشيوخة

جاءتهما الانباء أن سيسيل قد رزقت غلاما فبنتا وانها سعيدة وتتمنى لهما كل هناء

فلم يضطرب بنوا ولم يتكلم بل لاذ بصمته وارتمى فى العمل

أما بنوات فقد رزحت تحت هذه الكوارث المتعاقبة وأصيبت بالصمم والشلل فكان يأتى الشاب ويجلس عند سريرها ويقرأ لها فى كتاب أو يغنيها أنشودة . أو يتكلف الابتسام والضحك أو يلوى بوجهه فتنهمر من شؤونه العبرات

وماتت الشهيدة بنوات عشية يوم مقرور ولم يشيع جنازتها أحد فدفنها بنوا ولما أن أهالوا الثرى على التابوت أحس الرجل أن قلبه يتقطع فعاد مطرق الرأس ، زائغ العينين ، يتهادى ، ويضرب فى الأرض لمعتوه !

ودع القرية واعتزم الالتحاق بمدرسة أخرى وكان لابد للقطار الذى استقله أن يقف بمدينة (نيم) حيث تسكن المرأة التى أحبها ! ..

لم يستطع المقاومة ونزل من القطار واتجه صوب المنزل وصعد الدرج ودق الباب ثم فكر بغتة فى الهرب . ولكن الباب فتح وأبصر أمامه الخادم تحمل طفلين أحدهما يشبه حبيبته كل الشبه ، فانى وقبلهما وسأل عن صاحبة الدار فجاءت سيسيل تتخطر وتضحك وقد امتلأ بدنها ، وازدهرت قسماتها ، وأضفت عليها الانوثة الكاملة حلة مجد ساحرة

دهش بنوا وتراجع . وانكر أن فتاة الامس التى كان مدلها بها هى نفس أمرأة اليوم

شاهد بعينيه كيف أحالها حب رجل آخر أمرأة أخرى ، قص عليها خبر وفاة بنوات فتظاهرت بالحزن ورمته بنظرة شفقة ساخرة فغلى الدم فى عروقه ، ولكنه تمالك نفسه وقام لفوره فودع سيسيل وانصرف

* * *

رجع إلى القرية ، وظل يمشى على غير هدى . يحملق فى الشوارع كأنما هو يراها للمرة الأولى ، ويتطلع الى المارة كأنما هو يفتقد بينهم عزيزاً كان بقربه الساعة !

لم ينظر اليه أحد . لم يلتفت اليه انسان . أحس بنفسه وحيداً شريداً لا حياة ولا أمل !

خسر كل شيء . المرأة التي أحبته والمرأة التي أحبها . أجال طرفه في الفضاء تخيل اليه أن الطبيعة لم تخلق لأجله ، وأنه لابد مقضي عليه ، فاتجه صوب منزله ، ودخل الحجرة التي كانت تعيش فيها بتوات ثم وقف لحظة كالمبهوت وتأمل جدرانها وأثاثها ، وجلس على المقعد الصغير يفكر ، وحانت منه التفاتة فأبصر صورة الفقيدة محدقة فيه تبتسم اليه أصفى ابتسامة وأحلاها فصرخ صوتاً فظيعاً . وقام من فوره فخلع ملابسه وتقدم الى الباب فأغلقه وأحكم رتاجه ...

ثم تمدد على الفراش وحاول أن ينام ! .. مرت بضع ساعات لم يسمع فيها أي صوت ولكن عند مادقت ساعة القرية ثلاث دقات سمع شبه عويل غريب ينبعث من جوف الحجرة وصوت شيء يسقط على الارض ويدوي في الظلام دوياً مفزعا

* * *

وفي الصباح جاء رجال البوليس الى البيت ، وحطموا الباب ودخلوا فأبصروا بتوا مشدوداً من عنقه الى حبل معلق في سقف الغرفة ، وقد جحظت عيناه ، وتدلى لسانه ، واصفر وجهه وفارقته الحياة !

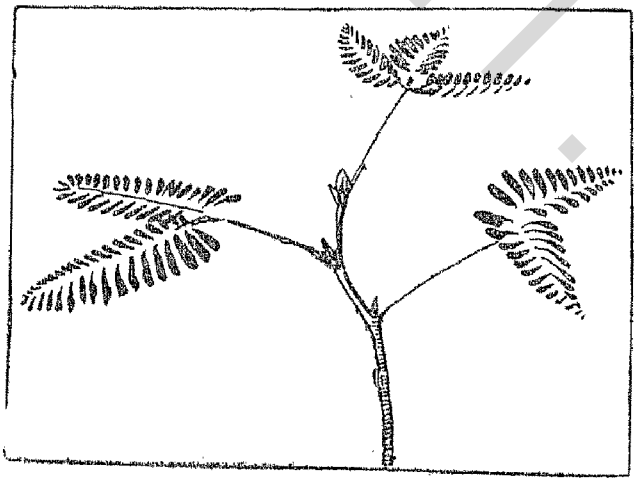

تيريز راكان

Therese Raquin

لاميل زولا

اميل زولا من أكبر قصصى فرنسا وهو زعيم مذهب «الناتورالسم» أى رسم الحياة من ناحية الطبيعة المحضه . ففنه تصـــوير للغرائز وأطوارها فى جسم الانسـان وعقله . وأكثر ما يهتم به أميـل زولا درس شهوات الحواس . فالجوع والرغبة الجنسية والعمل الجثمانى وكل مايتعلق بمطالب البدن ونزواته يجد فى هذا القصـصى أمهر المصورين وأدقهم فالتحليل النفسانى والبحث فى العواطف المركبة ليس من شأنه . فهو يرسم أعراض الحواس فقط . ومعظم أبطاله من أفراد الشعب الخاضعين لحـكم الفطرة. فالعقل المثقف المصـقول بالمعارف والآداب هو الذى يخلق فى النفس تفاعلات عاطفية معقدة . أما العقل الشعبى العادى البسيط . فرجعه الغريزة . والغريزة هى مادة العمل الفنى عند زولا . وقصة « تيريز راكان » من أروع قصصه وأبلغها فى الدلالة على نزعته الفكرية والفنية

أزقة مظلمة ضيقة موحشة . يشعر المرء فيها بضرب من الأسى يستولى عليه ويحتل فكره ويستحوذ على البقية الباقية فيه من روح الطـــلاقة والمرح

فى تلك الأزقة بيوت متداعية . مغبرة اللون صفراء تضرب الى الحمرة المكمدة . تتناثر منها طبقات الجير رهوة زرقاء ، وتتضح جدرانهـا بالرطوبة المتغلغلة فى الجسم تشل المفاصل وتضاعف فى النفس ذلك الأسى

وكانت باريس اللاهية العابثة أبعد ماتكون عن هذه الأزقة الخامدة الميتة . فالمجون والاستهتار وشتى ضروب اللهو والفانيات الحسان المتهتكات والحفلات الداوية والمشارب والحانات الكبيرة لم تكن أصداؤها لتبلغ هذه الناحية الا يخيم عليها ليل دائم وتعقد الكآبة فوقها سحبا كثيفة

وكان يخيل الى المتجول فى هذه الاحياء انها قبر فسيح فى فؤاد باريس المتقد يكاد يخمده ويبعث فيه برودة الموت الفاجعة

ولكن باريس لم تكن لتهبأ بما يكتنف جسمها الناضر من جرائيم . وكان حياتها المصطخبة لاتفتأ تطرد سيل الاوحال كالنهر ينصب قويا هادراً يجرف فى طريقه كل شيء

فى حى من تلك الاحياء كانت تسكن أسرة « راكان » المؤلفة من « كاميل » وزوجه « تيريز » ووالدته مدام راكان

وكانت الوالدة امرأة عجوزا قد كلل الشيب شعرها الخشن اللامع . طيبة رحيمة . ذات عينين هادئتين وجبهة ضيقة وتقاطيع بارزة فيها شيء من الجلال الفاتن الصافى ينسكب على جثمانها فيؤثر فى الناظر ويرسل فى ارجاء البيت نوعا من السكون

وكانت كلفة بالصمت تسير بخطى وئيدة متلصصة وتتحدث الى ابنها وزوجه فى همس . وتنصرف الى شؤون المنزل وقبلتها العمل وحده وسعادتها النفسانية القصوى فى تأدية ماعليها من واجب دون تردد أو كلل

ولم يكن أحب اليها فى الدنيا من ابنها كاميل فقد كانت تختصر لذائذ الحياة فى نظرة واحدة اليه . وكانت تكد وتدأب فى سبيل تمتعه بالراحة والرفاهية وكل ما يمكن ان يحول أسه من رغبات و آمال

وكان كاميل شابا هزيلا تقضت سنو حداثته فى الاوجاع والامراض وهاجمته مختلف أنواع الحمى والوافدات فكادت تجهز عليه

ولكن والدته لم تدخر وسعا فى سبيل حمايته ودفع غائلة الموت عنه

واستلابه من بين براثنه . الا أن المرض كان قد هد قواه وأنهك اعصابه وحال بين جسمه وبين النمو الطبيعي . فظل نحيلا قصيراً متداخل الاكتاف جاف العود شاحب اللون تطل عليك من وجهه الصغير الوجل عينان كبيرتان تحيط بهما هالة زرقاء ترسل فى النفس ذعراً ممزوجا بشفقة عميقة على الشاب المسكين

وكان كاميل قد أشرف على الثلاثين وحياته الضئيلة الموزعة بين مرض يعالجه وآخر يوشك أن يهبط به جعلت منه مخلوقا فاتر الهمة خائر العزيمة ، أعز مايطمح اليه فترات هدوء يقر فيها من تعب الحركة ، ولحظات حلم وتأمل يسبح فيها ما شاء خياله الأجوف وما وسعت دماؤه الفاترة من اهواء وأحلام

وهذا ما كان يزيد فى عطف والدته عليه ورأفتها به وحبها اياه وافناء جهودها فى اجراء السرور على نفسه وتبديد ذلك الظل المخيف ، ظل الموت الغادر ، من عينيه المحمومتين المذعورتين

ولم يكن له مثل أعلى غير احتراف مهنة كاتب فى مصرف فما زال بها حتى بلغها فكان يعمل سحابة نهاره عملا مضنيا شاقا ولكن المظهر الباهر وحياة المكاتب ووظيفة حساب محترم ، كان ذلك مما ينعش نفسه ويحفز فيه قوى المقاومة والاحتمال ويشعره بانه قد وصل الى ما تصبو اليه نفسه وما يمكنه من أن يحظى بامرأة يرزق منها أولاد تقربهم عيناه

وأقامت له أمه مأدبة حافلة يوم أن عين فى منصبه ودعت اليها رفاقه الموظفين وغامرت بزجاجات النبيذ المعتق وضحت بها عن طيب خاطر وانصرف جميع المدعوين وقد اكتظوا بأشهى الطعام واستمتعوا بلذيذ الشراب ولعبت برءوسهم نشوة الخمر فجعلوا يتمدحون بكرمه وسخائه ودماثه أخلاق والدته ورقة ابنة خاله تيريز التى كانت تقوم على خدمتهم وتسكب لهم الخمر وتسامرهم وتضاحكهم وهى لا تخرج عن حيز الوقار والحشمة ولا تنزل عن إبائها الرصين وتحفظها وهدوئها

وكان والد تيريز قد توفى من زمن بعيد فى حملة من حملات الاستعمار فى افريقيا فعهد بتربيتها الى عمتها والدة كاميل فآوت الفتاة فى بيتها واعتنت بتهذيبها عنايتها بابنها ولم تبخل عليها قط بشىء

ونشأت الصبية بجوار الشاب فى منزل واحد والفت الحياة بقربه وشاهدت عن كثب طلعته الدميمة ولاحظت جثمانه المشوه واعتادته كما اعتادت تلك الحياة الراكدة الآلية تنقضى بين عجوز وادعة صامتة تسعى الى العمل بخطى حذرة . وشاب واهن الأعصاب محطم الجسم متجهم عابس حزين لا يلبث أن يدخل البيت حتى يستلقى ويشكو ألما فى المعدة أو الصدر ويلتمس الى الصبية أن تعالجه بشراب ساخن يوقظ حواسه وينعشها ويلطف من حدة سعاله الخشن

وكان ان بلغ الفتى سن الرشد ولم يكن قد أحس من نحو تيريز بأية عاطفة ولم تستفزه اليها محاسن جسمها النضير ولم يشعر بأية جارحة فيه تستيقظ وتهفو لمرأى ذلك الشباب الحى

وكان هذا البرود الصارخ فى تصرفاته واعراضه التام عنها وتأففه وعجزه وجوالشلل المضايق المرفرف دواما حواليه ، وانكماش العجوز وهمودها يدفع بالفتاة الى كتمان أفكارها ومنازعها والرضاء بعيش الخمول والحسرة وانتظار مايمكن ان يمن به عليها الزمن من نعيم طالما عللت به نفسها وطالما أمضها وأقلقها وغلب الأرق على أجفانها وقلبها فى فراشها حيرى لاتدرى فيم تفكر وما تطلب ولا الى أى لون من ألوان السعاد تصبو

ورأت العجوز أن الحياة تفر منها على مهل وأن وحيدها وسلواها سيصبح عما قريب ولا أنيس ولامعين فاشفقت عليه من عزلة لاقبل له باحتمالها وأضمرت أن تزوجه من تيريز التى كانت تثق بها ثقة عمياء وتظن أنها قد غرست فيها من خلالها الطيبة واخلاصها وحبها العمل مايكفل سعادة ابنها وتأسيس أسرة هانئة لاتقوى عليها صروف الدهر وعاديات الزمن

وخاطبت ولدها فى الامر فلم يمانع وفاتحت به ابنة أخيها فراحت واجمة

لاتشعر بأى دافع يدفعها للرفض أو القبول . للحزن أو الفرح . كأنما اقترانها بكاميل كان . كارثة مسطورة لها فى لوح المقادير مهما ناضلت وأعولت فعبثا تحاول ردها . وهل أبقت لها حياتها الذليلة أية همة تحفزها الى النضال ؟ وهل دماء شباب متقد تلك التى تسرى فى عروقها ؟ وهل خلجات امرأة فتية تلك التى تحسها ؟ وهل هى امرأة كبقية النساء لها مالهن من عواطف ومشتهيات ؟

لا . ان الحجر الصلد هو صدرها ، والينبوع المجفف قلبها ، والمرمر البارد جسمها والذهول المعذب الحائر مادة حياتها . فليس لها الا ان تخضع وتصمت وتعنو

ومدت المائدة الكبيرة ودعى الموظفون والجيران وفتحت مرة أخرى زجاجات النبيذ والشمبانيا

وأترع المدعوون كؤوسهم فى صحة العروسين . وكانت تيريز جالسة قرب زوجها جامدة مبهوتة تسرح فى الجميع أبصارها فتصادف وجوها مشرقة وشفاها باسمة ثم تستدير قليلا وتتحول الى كاميل وترمقه بنظرة فاحصة فاذا هو مصفر اللون باهته . يضحك ضحكات طويلة بلهاء ويجيب على تمنيات رفاقه بعبارات مزرية تافهة . فتحنى رأسها عياء وتثور فيها مختلف العوامل من غيظ وكمد وأسى فتشيح بوجهها وتأخذ فى مخاطبة احدى المدعوات وتمعن فى القهقهة خشية أن تنفذ العجوز ببصرها الحاد الى قرارة نفسها

وانصرف المدعوون وقامت العجوز فقبلت ولديها ودعت لهما بطول العمر ورخاء البال وتركتهما فصعد الزوجان الى مخدعهما

* * *

وكان لمدام راكان العجوز حانوت خردوات عند مدخل البيت تظل فيه طيلة نهارها تلاطف الزبائن وتستدرجهم وما تزال بالبخلاء منهم يساومونها وتحاورهم حتى تظفر بهم فى النهاية وتبيعهم بضاعتها رغم أنوفهم . وكانت تيريز تتصرف لشؤون البيت والعجوز لحانوتها فلم يكن للمرأة الشابة سمير غير العمل لا يفتأ يتكرر على مر الايام ولا يخفف من وطأته غير مقدم الزوج عند الظهر وجلوسه

للطعام بين زوجه ووالدته يحدثهما عن نوادر الموظفين وأسرار بيوتهم وما يحلمون به جميعاً من علاوات وترقيات

ولم يكن كاميل ليعرف فى العالم شيئا غير هذا ولا دار فى خلده ان حديثا آخر قد يكون أفكه من هذا الحديث ، ولا أحس لحظة ان مايعود عليه باللذة قد يضجر الغير ويضايقهم الى حد الألم

وكانت والدته أسعد ما تكون بحكاياته . الا أن تيريز كانت تتألم وتتردد الطعام ازدرادا وقد حلقت أفكارها فى اجواء مترامية بعيدة تبدو فيها الفينة بعد الفينة أطياف عابرة غريبة . . .

وبدأت تلحظ فى عناد هنات زوجها وتعدها عليه وتحاسبه بمقتضاها وتزيدها الوحدة اهتياجا وضجرا فتغلو فى نظرتها اليه وحكمها عليه وتذهب فى تأويل أعماله شتى المذاهب وينتهى بها الامر الى ازدرائه واصطناع الادب الجاف فى معاملته وكانت تتبرم باوجاعه ولا طيق منه انه لايكاد يقوى على مصارعة النسيم فى صبيحة يوم ناضر ولايستطيع أن يخطو خارج البيت خطوة واحده اذا ماعصفت الريح بالأشجار ودوى الرعد فى السماء وانهمر المطر وتهاوت قطع الجليد

ولم تكن تيريز على جمال عظيم ولكنها كانت بضة الجسد مليئة التقاطيع عريضة الاكتاف ناهدة الصدر ذات عينين براقتين وفم صغير ناتىء مخضب بحمرة دامية تلمع على الشفاه الغليظة المتدلية فى شره وحدة وغضب مكظوم

ولم يكن كاميل ليبصر من هذه الفتنة شيئا ولا كان فيه من مدخر القوى مايحرك به عواطف زوجه ويضرم جذوة الحب فيها . وأحست المرأة أن دعوتها الحارة لا تصادف منه اذنا صاغية ولا تظفر بنظرة واعية فدب اليأس المروع فى نفسها وخالت البيت سجنا والعجوز حارسا والزوج جلادا

ولم تكن العجوز على ذكائها وخبرتها لتستطيع أن تستشف الواقع بل هى لم تأبه لذلك ولا أخطرته على بالها اذ نفوس الغير كانت تتراءى لها طيبة مخلصة كنفسها فالفضيلة التى تسكن قلبها هى التى كانت ترى من خلالها نفوس الآخرين وتقدرهم وتحبهم وتحنو عليهم جميعاً كابنائها

وابتردت شيئا فشيئا حرارة المرأة الصبية وقرت دماؤها وأظلم الكون فى

عينيها وشاع فيها ضرب من التبلد والسهوم فأخذ جمالها يذبل وغار خداها وانطفا بريق وجهها واستحالت نضرتها الى شحوب وعصبيتها النشطة إلى تواكل ورخاوه فعادت لاتعنى بزوجها ولا بعمتها ولا بالعالم .

وياليت القدر كان قد حبا تيرز المسكينة بطفل تحوطه بعين عنايتها وتفيض عليه مما يحتبس فى صدرها من عواطف لا تجد منصرفا فتجيش وتعلو تكاد تخنقها خنقاً

ولكن هذه المرأة القوية البنية الطامحة للايناع والازدهار لم تكن لتستطيع برغم شقائها وجفافها وظمئها أن تنزل عن حيويتها العميقة المستكنة بين ضلوعها الرابضة فى حدقتيها ، تعد الساعات وتتحين الفرص

وهكذا كانت الحياة فيها اقوى من العدم المنتشر حولها والامل اقوى من اليأس

وكان يخيل لمن يراها أنها مثال الصبر والقناعة ، والعقل الرصين ، والارادة العاملة المتئده ، والصفاء النفسانى يحدوه واجب الاسرة ولا يعكره الفضول

الا ان صبرها وسكونها وكر الايام عليها دون ماحادث كبير او صغير ولد فيها شيئاً من الحقد الكمين ، والكبرياء القاسية ، والاستهتار الخطر فهى تعيش بالغريزة ومن اجل الغريزة . نهبا مقسما لتلك العوامل تشربها نفسها وترتاض عليها وتتخذ منها ملجأ لها ساعة الضجر والاشمئزاز

وجعلت تنمى فى فؤادها تلك الغرائز ماشامت لها العزلة حتى استولت عليها واحالتها على مر الزمن مخلوقا منافقا غشاشا يصطنع الهدوء وهو يغلى ، يضحك وهو يسخر ، يلاطف وهو يكره ، يقبل وكأنه يريد ان ينفث فيمن يقبله سما زعافا يقضى عليه لساعته

اجل اصبحت تيرز مثال الخبث والمكر والدهاء . كماء راكد ملؤه الجراثيم والحشرات او كقوة هائلة من قوى الشر اعدتها الطبيعة لتدمير نفسها والغير

* * *

وفى ذات ليلة أقبل كاميل فرحا متهللا متأبطا ذراع صديق له يدعى لوران وما

ان توسط البيت والتقى بوالدته حتى صاح فيها والبشر يعلو محياه وذكرها بصاحبه ايام كان غلاما يتردد عليهما فلمعت بغتة عينا الأم وانبسطت اساريرها وتقدمت من لوران باسطة ذراعيها واحتضنته اسعد ماتكون برفيق مخلص محبوب من رفاق ولدها العزيز

وعرف كاميل صديقة لوران بزوجه تيريز وأنباها بما كانت عليه صداقتهما أيام الحداثة من متانة وما تزال عليه

وجلس لوران واسرعت العجوز فجاءت بزجاجة نبيذ وشيء من الجبن واللحم واحتفلت بمقدم الشاب وطفقت تساله عن عشيرته وأهله وصحته ومهنته . فاجابها انه كان قد احترف التصوير ولكن هذه المهنة قد لازمها البؤس فانصرف عنها غير آسف وهو الآن يعمل كموظف فى إحدى المحطات

فما ان طرق مسمع الزوج هذا الحديث حتى ازدهى واقبل على صاحبه يهنئه ويفخر به ويعامله معاملة الانداد ويعده بان يدمجه فى دائرة الموظفين رفاقه الذين كان يعتقد كاميل انهم خلاصة المجتمع وزينة المجالس وصفوة أهل الفكر . . .

وكانت تيريز جالسة عن بعد تلقى على الزائر الجديد نظرة بسيطة عارضة

وكان يتكلم وهى تنصت ثم تتحول بالرغم منها الى زوجها فتحدق فيه طويلا . . .

ولم يكن كاميل ليستطيع أن يكف عن هذره ومجونه ولا أن يمتنع عن السعال . ولا أن يغالب نفسه فيلاحظ حركاته المضحكة ولا أن يمتنع عن التمخط والتجشؤ والبصق والقهقهة الفارغة

ولطالما حاولت تيريز أن تنبهه بايماءة خفية ولكنه كان لايفهم أطوع مايكون لنزواته العابرة وانفعالاته الطارئة يستمتع بها فى غير محاسبة أو كلفة أو اهتمام

ورفعت تيريز فجأة عينيها المستسرتين ورفت أهدابها قليلا وتصاعد الدم الى وجنتيها وجعلت تسرح الطرف ملياً فى هذا الشاب الغريب المدعو لوران

وكان لوران يناهز الثلاثين أسمر الوجه ، ضيق الجبهة ، غزير الحاجبين اسود

العينين ، فى تقاطيعه خشونة ورقة ، مديد القامة صلب العود ينبعث منه ضوء رجولة يأتلق به الجو حوله ويرسل فى النفس احساساً عميقاً بالاحترام والخوف والاطمئنان . وكانت تيريز لاتفتأ تحدق إلى يديه الكبيرتين الغليظتين والى عنقه المكتنز وأشاراته المستقرة الهادئة وفمه العريض المنفرج عن أسنان لامعة

وعلى الرغم منها كانت تنقل طرفها وتحط بأبصارها على زوجها كاميل فترى شلوا كسيحاً يضحك ويلوح بيديه تلويحاً مزعجاً فكأنما شبح الموت والمنجل فى يده يحلق عليـــه ويطوف به ويوشك أن يحصده حصداً فى أقل من طرفة عين

وكانت الحياة الرحبة الطليقة تصطخب فى أحاديث لوران وتترافع موجاتها مرغية مزبدة تكاد تغرق تيريز فى احشائها وهى ماثلة برأسها مرهفة اذنيها تتلقى العبارات القوية وتستمع الى الأقاصيص الغريبة والنوادر الفكهة مذهولة كمن يشهد انواراً ملونة ساطعة بعد أن عاش دهراً فى ظلام . وكان لوران حلو الحديث رشيق العبارة حاضر النكتة ولوعا بالحكايات المستملحة يفيض بها على سامعيه فى صوت حار واضح رنان يمتلك على العجوز مشاعرها ويدهش كاميل ويخلبه فيفغر فمه ويظل يضرب ساقيه براحتيه وعيناه تدمعان من فرط الضحك ، والسعال يكاد يهشم صدره . بينا تيريز تحبس أنفاسها وتقاوم كيلا تضحك وتتراجع قليلا لتحدق الى هذا الرجل العجيب الذى ماأن أقبل حتى أقبل معه النشاط والحركة وسحر الرجولة وجنون الحياة

وأحس لوران أنها تستطيب الجلوس اليه وتستعذب سمره وتستمرىء نكاته وتبتسم له ابتساماً هادئاً مغرياً يشجعه على التمادى والاسترسال

وكان كاميل يرحب به أعظم ترحيب والعجوز الطيبة تستريح أيضا الى فكاهاته وتجود عليه بكؤوس الخمر دون حساب . فشعر كأنما أهل البيت فى حاجة اليه وأدرك ببصيرته أنه قد أدخل السرور على قلوبهم وأن الضحكات القريرة لم ترن اصداؤها فى جدران هذا المنزل إلا منذ دخله هو

فاعتاد خلطتهم واعتادوا رؤيته فكان يزورهم كل مساء . يلاعب كاميل النرد ويداعب العجوز ويتملقها ويخاطب تيريز فى لهجة رقيقة عذبة ملؤها الاحترام . ثم يأخذ فى قص أقاصيصه وسرد نوادره والجميع يقهقهون ماخلا تيريز

وأحست المرأة بكيانها يستيقظ ويتحرك والتهبت دماؤها واصطبغ خداها بلونهما الوردى القديم

وبدأت تطيل النظر إلى لوران . وتتنهد ، وتطرق ثم تروح فى شبه سبات حالم طويل

ولما كانت تدنو منه كانت تعروها اختلاجات خفيفة مقلقة فتصافحه ويدها ترتعش وصدرها يعلو ويهبط ونظراتها تحوم حول العجوز مخافة أن تلحظ عليها شيئا

وكان وجوده وحده يعذبها أشد عذاب اذ لا تستطيع الارتماء عليه وتقبيله وإسناد رأسها الى كتفه

كل هذه التصورات كانت ترسل فى أوصالها رعدة الحمى وتسمم اللحظات التى تحظى فيها بالجلوس اليه

وأدرك الرجل ذلك فلم يتورع ومالأها على عواطفها

وكانت أشهى ماتكون غضارة يزيد اضطرابها فى سحر محاسنها فتبدو كالغريق يتخبط باحثاً عن حطام

وكان لوران يحسن الرسم بعض الشيء . ففى ذات مساء دخل عليهم حاملا لوحة كبيرة أسندها الى احدى زوايا الغرفة ثم أخطرهم أن فى عزمه رسم صديقه العزيز كاميل

ففرحت الأم وهللت وصاح كاميل يهتف بالشكر

وجعل لوران يدير الطرف فى ارجاء البيت عله يقع على الحجرة ذات النور الصالح لمباشرة عملية الرسم

واستقر رأيه فى النهاية على مخدع النوم فصعد الجميع اليه . وثبت لوران لوحته على القاعدة وأجلس كاميل على مقعد بعيد وتناول قلمه وشرع يرسم فى حيطة واجتهاد وصبر

وكان قلبه يخفق خفقاناً عنيفا ويده ترتجف وترك القلم بغتة على أن يعود الى العمل فى الليلة التالية

وكان كلما انبثق وجه كاميل من جوف اللوحة ازداد اعجابه وإعجاب والدته وحبهما للوران

وفى الليلة الأخيرة وتيريز متكئة الى الباب تنظر الى ذراع لوران المتمشية على اللوحة بحركات ماهرة تطلعت قليلا بالرغم منها فابصرت محيا زوجها قد غمر اللوحة وبرز منها وجعل يحدق فيها بعينيه الغائرتين تحديقا غريبا . . .

وأدار لوران اللوحة فما إن شوهد الوجه تماما حتى ضجت الغرفة بالهتاف والتصفيق وترافعت أصوات الشـــكر من كل صوب وارتمى كاميل على صديقه وأوسعه ضما وتقبيلا

واستبقوه للعشاء وذهب كاميل لابتياع زجاجة من الشمبانيا ونزلت العجوز تعد المائدة وظل الرجل واقفا بقرب المرأة الجامدة المبهوتة

ورفعت عينيها ورمتـــه بنظرة عتاب وتقدمت خطوة وهى تتمايل وترتعش . ففتح الشاب ذراعيه وأسرع اليها فتلقاها وطبع على فمها قبلة طويلة محمومة

* * *

وعرفت تيريز لأول مرة حبا جارفا مكتسحا كأعصار

لم تشعر بسعادة تضارع هذه السعادة فهاهى المقادير التى طالما ناصبتها العداء افترت لها عن ابتسامه حلوة راضية وقدمت اليها الحب خالصا عميقا دون أن تسعى اليه كغيرها من النساء

الآن فقط أحست هـــذه المرأة بالفارق العظيم بين الصحة والمرض ، بين الرجولة والضعف ، بين الحب المتبادل والحب المفروض ، الآن هى ملك هذا الرجل بل هى قطعة من جسمه وروحه لاسبيل الى انفصالها عنه مهما قدر الزمن . ولم تكن تخشى فى ذلك أى انسان فجنونها بسعادتها الطارئة ذهب بلبها وأنمى فيها حاسة التمرد والاستهتار

وكان لوران على كلفه . ا دونها شجاعة وجرأة يحاول ان يلطف من حدتها ويكبح جماحها فتهزأ به وترميه بالجبن وتغريه بالتمثل بها ولا تفتأ تقول له ان العالم كله مؤلف من عبيد حمق مساكين وانها هي وحدها القوة وهو وحده الجميل وإن غرامهما يجب أن يعبث بكل شيء ويسود كل شيء ولا يعيش الا لينمو ويزدهر برغم المصطلحات والقوانين ورغم عجوز تشرف على القبر وكسيح أجدر به الفناء

وأحست أنها ليست حرة وان ليس في وسعها الخروج متى شاءت واستقبال خليلها متى عن لها . فهالها الأمر وأيقنت أن أهل البيت مازالوا حراسا عليها وما زالت فيه أسيرة سجينة كسابق عهدها . فامتلأت جوانحها بالبغض الأثيم والنزعة الطاغية للتمرد والهدم . فعاودها الألم وعاودها القلق والاضطراب وذهلت لما ان شاهدت نفسها أتعس حظاً مما كانت عليه وان السعادة لم تجدها نفعا ولم تنقذها بل على النقيض تشعرها الآن أبلغ شعور بأنها ذليلة وخاضعة لا تملك حق العيش وفق هواها صحبة الرجل الذى استكشفت دنيا الغرام على يده

وما ان احتوتها هذه الفكرة حتى خيل اليها أن البيت قد أصبح جحيما وزوجها شيطانا رجيما فلم تطق وأحست تمام الاحساس بأن الزوج هو العدو . وهو المستبد . وهو العقبة الكؤود . فجعلت تفكر . وتخلو بنفسها وتتألم . ودبت فيها روح الدسيسة والغدر ومرت بذهنها تصورات دامية فاجعة وأخذت تحتقر ذاتها وتسخر من كبريائها وتعجب كيف أنها وهي الأبية الباسلة ترضى بهذا الذل وتسمح لمريض متهالك مصدور ان يحول بينها وبين الحياة !

والتقت بعشيقها فأعرضت عنه وألقت عليه نظرة شزراء . فبهت الرجل وجعل يتفحصها ويتساءل عن السبب . فما كان منها الا ان أقبلت عليه فجأة وصارحته بدخيلة نفسها فانتفض مذعورا وكاد يخر صعقا . فتراجعت وأخذت تعيره وتهزأ

به وتستنهض ميت همته وتزين له الحياة حرة من كل قيد . لادخيل ولاغريم ولا واجب غير واجب الهوى

وصورت له عذابها فى أبشع الصور واسترحمته وتضرعت اليه أن ينقذها وجعلت تسرف وتفنن فى هبة نفسها كى تلهبه حتى تراخى الرجل وضاقت فى وجهه السبل وحار كيف يروغ منها وأذعن لها فى النهاية

ولم يبق لتيريز من أمل غير هذا . وصارت لاتفكر الا فى هذا ، وبات خيالها مسرحا رحباً لمعارك مفزعة وخارقة . تنام فتحلم بالخلاص . وتستفيق لترى يوم الخلاص . ولوران وقد استولت عليه الافكار الجديدة التى أودعتها المرأة عقله واحساسه يكد ذهنه ويبحث ويتهيأ ويتحين الفرص للقيام بالمهمة الفاجعة التى عهدت اليه بها

* * *

وكان ان اتفق الجميع على تمضية يوم من أيام الربيع فى نزهة على ضفاف السين فأعد كاميل عدته وارتدت تيريز أجمل ثيابها وخرج الاصدقاء الثلاثة يتضاحكون ويتطارحون النكات ويتهادون

وكان الجو فاتراً وبالسماء بعض السحب تتمزق شيئاً فشيئا وتبددها هبات الهواء . ولوران يسير بقدم ثابتة تتبعه تيريز ساكنة صامتة تحدق اليه آناً بعد آن وترميه بنظرة معنوية وهى تضم شفتيها الحمراوين وتبتسم ابتسامة محرضة ساخرة

وكان النهر منبسطا أزرق هادئاً تبرز منه الموجات ثم تختفى والريح العاتية تقبل عليه فيسمع له شبه هدير أبكم مخنوق

وجلسوا على العشب وتناولوا ماجاءوا به من طعام وظلو يحتسون الكؤوس تباعا والنسمات تداعب وجوههم

وتلفت لوران وغمز تيريز ومال الى كاميل وعرض عليه القيام بنزهة فى قارب صغير يسبح بهم على سطح النهر الصافى فتألقت عينا الزوج وصفق طربا

وبرقت أسارير الزوجة ثم تجهمت بغتة واستدارت ولم تتكلم . ولم يتمهل لوران فقام لفوره ونادى نوتيا كان هناك ونزل الجميع الى القارب والمرأة ترتعش وتكاد تتعثر

وانساب بهم القارب وهب عليهم نسيم ندى محمل باعطار البحر وجعلت تيريز تضحك ضحكات صفراء وتتحاشى وقع أبصارها على أبصار لوران . وقطب العاشق جبهته ودنا من الزوج رافعا ذراعيه ثم تقهقر وقد علت محياه حمرة مكمدة . وكان النوتى قد ترك القارب لهم فاخذ لوران يجذف بكل مافيه من قوة والقارب يشق الماء ويجرى فى عرض النهر . ولما ابتعدوا عن الرقباء تنفس لوران والقى على تيريز نظرة واذابها جامدة جمود تمثال تحدق اليه تحديقا هادئا وقد التوت زاوية فمها ازدراء وكرها فلم يطق ولمعت عيناه وتضامت شفتاه فتقدم بعض الشيء وتحفز ثم انقض على كاميل فجأة وحاول أن يقذف به فى جوف البحر ولما أن شعر الزوج بما دبر له تجمع كل ما فيه من حب الحياة فامسك بلوران وتشبث به وجعل يصرخ صراخا حاداً مزعجا ويناضل ما استطاع وتمكن من خصمه لحظة فقبض عليه من عنقه الغليظ وعضه فيه عضة شديدة فصرخ لوران واستثيرت أعصابه فاحتمل بكاميل وهو يصيح صيحات هائلة والقاه فى النهر

وعندها استغاثت تيريز واستغاث لوران وملاء الجو زئيرهما الفظيع واقبلت القوارب على صياحهما فعادت بهما إلى الشاطىء وأسرع البحارة باحثين منقبين حتى أبصروا الجثة المنتفخة الشوهاء طافيه على وجه المياه

***

واعتبرت الحادثة حادثة غرق و ا القتلة من عقاب القانون . وماعاد لوران بخليلته إلى البيت وقص على الوالدة الثكلى تفاصيل الواقعة ملفقة زائفة حتى تقلص جسم العجوز وسرت فيه قشعريرة رعب هائلة وتهاوت على نفسها وراحت فى شبه ذهول كذهول المجانين ثم انتفضت انتفاضات متوالية وجعلت تنوح وتبكى بكاء الاطفال

وارتدت تبريز ثوب الحداد وقبعت فى عقر دارها ومثلت دور الارملة المنكوبة وكانت لاتكاد تبصر العجوز حتى تبتئس وتتنهد وتصعد الزفرات وترسل العبرات غزيرة حارة ، وخيم على البيت سكون لايعكره غير انين الأم المسكينة تقف بغتة وتتصور الماضى فتضرب وجهها بقبضتها وقلبها يتمزق والدمع يتفجر من عينيها

ولم تستطع تبريز أن تدعوا لوران لزيارتهم ولا أن تشير على العجوز بدعوته فى مثل تلك الاحوال فانطوت على نفسها وانتظرت ماتجىء به المقادير ولاذت بالعزلة وجعلت من مخدعها ملجأ يقيها شر العيون

ولكنها كانت عزلة مفعمة بالخبل والذعر ماإن تملكتها ثانياً حتى حفرت الهوة بينها وبين الراحة والاطمئنان

كانت تضطجع فى فراشها فيخيل اليها أن جسم زوجها ممدد بالقرب منها يضحك ويهذى وعيناه تقدحان الشرر يتوعدها باصبعه الدامية ويلعن اليوم الذى اقترنها فيه

وعندما تجلس على المائدة كانت تراه وقد اخذ مكانه منها يلعق الآنية كعادته ويومى. الى أمه مشيراً إلى زوجه وهو يبتسم

وعندما تنام تهاجمها الاحلام والرؤى ويأتى شبح كاميل فيجثم على صدرها ويهزها بيديه الضامرتين هزاً عنيفاً ويصرخ فتصرخ هى أيضاً وتستفيق مذعورة واذا الظلام يحيط بها والريح تصفر فى الخارج فيهلع لها قلبها

ولم يكن عشيقها أهدأ منها بالا أوأرسخ فى الاجرام قدماً . فالشبح كان يطوف به ويلازمه ملازمة الظل ، لايكاد يخلو بنفسه حتى يشعر بنار محرقة تلهب عنقه فيتحامل حتى المرآه وينظر ، ينظر إلى القرحة المتوهجة التى احدثتها اسنان القتيل الحادة وهو يناضل ويستغيث

وعندما يشتد بلوران الخبال يخرج هائما على وجهه ويتجه إلى الحانة فيشرب حتى تخور قواه فيرجع الى بيته وقد ظن أنه طرد الشبح واستراح ولكن القتيل يعود فيتمثل له فى كل مكان . فى زوايا الغرفة ، وبين أكوام الثياب ، فى رأسه

المتأجج ، وعلى فراشه الخشن العميق فيتقلب ويتلوى كمن صرعته الحمى أو كمن به مس

وخيل للعاشقين أن بعد الواحد منهما عن الآخر هو السبب فى هذا الجفاء . وظنت تيريز أنها لو استحوذت على حبيبها وعاشت معه فلا بد أن تزول الاوهام ويرجع الى الحياة رونق الماضى وبهاؤه

وأمعنت فى التظاهر بالغم والحزن واحتالت على الامر جهدها فاشفق عليها الاصدقاء ونصحوا العجوز بانقاذها من مخالب الوحدة وتزويجها وعز على الوالدة الثكلى أن يدخل البيت غريب يحل فيه محل ابنها ولكن حبها تيريز اقنعها بضرورة التضحية . فاستمعت لنصح الناس ورضيت بتزويج قرينة الميت ممن كان أعز صديق عنده وأوفى حبيب . . .

وكانت حفلة العرس الثانيه وكان المرح يدوى فى أرجاء البيت والضحكات ترن رنينها فى أذنى الوالدة فيعاودها الحنين وتنوء بها الذكرى فتجهش بالبكاء وهى لاتعى

وانصرف المدعوون وقبل الزوجان جبهة العجوز ودخلا مخدع القتيل

وما أن وطأته أقدامهما حتى افلتت تيريز وأصعدت صوتا أشبه بالعواء وأشارت بيدها المرتجفة الى الزاويه فتطلع الرجل وإذا الشبح هناك يحدد فيهما بصره اللامع ويبتسم

فضرب لوران المنضدة بيده حنقاً واستلقى بجوار تيريز وماهى الا هنيهة حتى دبت فيها الرعدة وأجفلت فحملق فيها لوران ومد البصر أمامه وإذا هيكل القتيل مسجى على السرير مبللا باردا جافا . وحانت منه التفاتة الى الحائط فابصر الصورة التى رسمها للزوج سوداء مظلمة تبرق فيها العينان ساخطتين مهددتين . فاستشاط غضبا وارتمى على زوجه يلوكها بين ذراعيه القويتين ويكاد يطحنها طحنا ولكنها دفعته عنها وقفزت وملء نفسها البغض والاشمئزاز فهاله مارأى وكبر عليه ان المرأة التى فى سبيلها خان وقتل وتعذب تقصيه عنها على هذه الصورة . فجعل يستعطفها وهى تفر منه وتستفظعه وتصرخ . فكاد يجن وايقن

ان احلامه قد اجتثت من اصولها وحياته قد انهدمت من اساسها وحبهما القديم قد ذوى ومات والحد فى القبر الذى دفن ، فيه القتيل

وأخذ لوران يبكى بكاء مراً

ولكنه ما إن شاهد ضوء النهار يقمر الحجرة فجأة حتى صاح صيحات مزعجة وراح يمزق منديله باسنانه ويكاد ينتزع شعره من جذوره وقد خيل اليه ان النور كشف الستر عن جريمته وأرشد الناس اليه وأنه افتضح . فجعل يطوف بالغرفة باحثا عن مخبأ يأوى اليه والشبح يلاحقه والقرحة تلهبه والنافذة المفتوحة ترسل اضواؤها الى مخيلته أطياف عمالقة مربدى الوجوه غلاظ السحن على أكتافهم شارات رجال البوليس يمدون أيديهم وينحنون عليه ويحتاطونه ويجرونه بالرغم منه الى هناك . الى حيث الغرفة الضيقة الباردة المظلمة ذات القضبان الحديدية والفراش القذر والجدران السودا.

ولاحت فى رأسه هذه الصور والفى زوجته تتطلع اليه مستفسرة حائرة . فدنا منها وجثا عند قدميها وجعل ينظر اليها نظرة عابد ويلتمس ان تجود عليه بجملة أو اشارة أوفكرة تخفف لوعته وتعيد السكينة الى فؤاده وتحيى فيه رجولته ولكن عدواه كانت قد سرت اليها فلم يبصر أمامه غير أنثى ضعيفة واجمة تحوم حواليه منتظرة قراره وقد غاض فيها معين القوة وانطرحت على السرير تبكى وتئن

راعه من نفسه ومنها ان تبطش بهما الاوهـــام على هذه الصورة ولم يجد ليأسه منصرفا الا فى التنكيل بها فاهانها واستذلها فكشرت عن انيابها وثارت فكأنما غرفة العرس الجميلة الوادعه قد استحالت فضاء خرباً يضج فيه رهط من المجانين

* * *

وعصف بهما الحقد المتبادل ذات يوم فشجر بينهما عراك عنيف وجعل كل منهما يحمل الآخر تبعة الجريمة ويتهمه بها ويلومه عليها ويصد عنه ويحقره ، وكانت الأم قرب الباب وطرقت مسمعها الصرخات واللعنـــات فدخلت على

الزوجين وابصرتهما كوحشين يهم كل منهما بافتراس الآخر فنكصت على عقبيها ولم تصدق نظرها ثم عادت تتفرس فيهما فشاهدت الزوج يشيح بوجهه غيظاً ووجلا والزوجة تشحب وتختلج فادركت وعراها ذهول وترنحت قليلا ثم هوت على مقعد وقد انعقد لسانها ودب فيها الشلل . واذن فقد اغتال الصديق لوران حياة ابنها المحبوب وقد حرضته على ارتكاب الجرم تيريز المخلصة الطيبة وقد كانت عشيقته منذ سنين تخدع الله والناس وتحوك المكيدة صامتة تحت جنح الظلام ! . .

لم تشعر الوالدة بعسف القدر كما شعرت به الآن وهي مشلولة بكماء لا تستطيع أن تستنزل عليهما اللعنة ولا أن تشكو امرهما الى القضاء

غير ان حاسة الانتقام طردت من قلبها كل عواطف الرحمة فكانت حدقاتها تبرق حقدا ، وعضلات وجهها تتشنج حسرة وغلا وارتقاب الثأر يمدها بحياة غزيرة تقاوم المرض وتطيل الاجل وتصمد للموت

وأصبحت العجوز فى حاجة إلى من يعولها ويخدمها ويرعاها ليل نهار فكان لوران يجر عربتها الصغيرة ويأتى بها الى مخدعهما ثم يتركها فى الزواية هناك

وكأنما أحساس الزوجين بعجز الام وشللها ، ويقينهما بانها عرفت جلية الأمر ، أراحهما من مهام والخوف والحيطة والحذر . فاستسلما لميولهما كالعادة وجعلا يتذاكران الماضى ويصب كل منهما جام النقمة على الآخر ويتراشقان بهجر القول ويتصايحان ، وتيريز تكيل الشتم لزوجها فيهب من مكانه وينقض عليها ويجذبها من شعرها الطويل ويوسعها ضربا ولكما والعجوز تنظر اليهما فى هدوء هانىء قرير

ولم تبق بينهما من رابطة غير رابطة البغض واضحى لوران لا يعبأ بامرأته بل أن سعادته كانت فى الفرار منها الى حيث تطرد الخمر خيالاته وتنسيه بعض مايعانيه من ألم

أما هى فقد كانت تتقزز من مرآه كأن به جربا وتخرج من بيتها ترويحا للنفس فتلتقى باصدقائها القدماء من شباب الحى فتعقد معهم الصلات وتنهتك

وتتبذل وتجود عليهم بما يرغبون دون ماحياء أوخجل

وانطلقت تجبه كل عرف ومصطلح ، لاناصح لها ولا رادع ، تبحث عن الراحة والنسيان فى بؤر الدعارة كما يبحث عنها الزوج فى الحانات

ألا أنها كانت تعود اليه صاغرة . مقيدة به ، مشدودة اليه ، كأنما الجريمة التى اقترفاها قامت فى قلبيهما مقام الحب وستظل جامعة بينهما الى الأبد

وضاقت بهما السبل وأعيتهما الحيل فلا الخمر ولا التشرد كان فى وسعه أن يحميهما من تبكيت الضمير أو يقصى الطيف عنهما ميقات ليلة واحدة تذوق فيها أجفانهما طعم الرقاد البرىء

ويا لها ساعة رهيبة تلك التى فكرت فيها تيريز أن الجريمة الأولى تمهد الطريق لسلسلة من جرائم أخرى ، وأن لوران بات أضعف من كاميل وأن فى وسعه اقتله والتخلص منه كما فى وسعها قتل العجوز البكماء المتشحة بالسواد ، الرابضة فى الزاوية تنذرها بخيبة المسعى وسوء المصير

وكذلك فكر لوران فى ان ينفض عنه عبء هذا الغرام المشؤوم وأن يستاصل من جسمه وروحه شائبة الداء العضال . وأن يتحرر بازهاق نفس اخرى نفس تلك المرأة التى يسرى أريج بدنها الحسار من عروقه مسرى الدماء ولكن ماان لمح كل منهما فى بصر الاخرنية القتل حتى ازداد حبهما الغريب قوة وشعراً فى صميم كيانهما أن الماضى كله يستفيق بغتة ، ويستدعيهما اليه ويبسط ذراعيه لاستقبالهما . ويلوح لهما بالذكريات المسمولة التى طالما رشفا منها رحيق الحب وعصير الحياة فاحس لوران أنه لو قتل تيريز فنفسه يقتل . واحست تيريز أنها لواعتدت على لوران فسترتد اليها الطعنة لامحالة وأدرك الزوجان ان نجاتهما فى الحب وحده ولكن كيف السبيل الى الحب وجثة القتيل بينهما ولعنة العجوز تحلق عليهما ، والرعب يهد منهما القوى ، والاشمئزاز الحاقد الدفين مايزال يعذبهما

وجال فى رأسيهما خاطر الانتحار وعمدت تيريز الى سكين كبيرة فشحذتها واخفتها بين أكوام ثيابها ريثما تحين الساعة التى تجد فيها الشجاعة الكافية لاغماد النصل فى احشائها . وانطلق لوران هائما على وجهه يوسع الخطى كحيوان مطارد مخبول حتى استقر به المطاف فى منزل أحد الصيادلة اصدقائه ولما رجع الى البيت

فى المساء كان قد سرق زجاجة صغيرة فيها سائل غريب يومض فى النور ومضات مخيفة

وجلس لوران ومال برأسه التعب الى كتفه ونظر الى زوجه الحبيبة البغيضة الى المرأة الجميلة الدميمة ، الى المجرمة الفاتنة المنكودة ، نظرة أسف ولوعة ووداع ثم طلب قدحا من الماء فجاءته به على مهل فامسك به وفتح الزجاجة وصب السائل ورفع القدح وأدناه من شفتيه وشرب وعندها صاحت الزوجة صيحة منكره وارتمت عليه واختطفت القدح من يده وجرعت ماتبقى فيه حتى آخره

وفى أقل من لمع البرق سقطت الجثتان كأنما أنقضت عليهما صاعقة واستقامت تبريز لحظة ثم هوت على عنق حبيبها وقد الصق فمها الشره بالقرحة الدامية التى خلفتها اسنان القتيل

وكان ضوء المصباح الضئيل يلقى عليهما ظلا أحمر مرتعشا خفيفا

وظلت الجثتان على الارض طوال الليل والعجوز المشلولة جامدة المضلات متألقة الاسارير تحدق اليهما وتروى عينيها منهما ، وتسحقهما بنظراتها الطويلة المتشفية

أكاذيب

Mensonges

لبول بورجيه — عضو المجمع الأدبى الفرنسى

يمتاز الأدب الفرنسى عن الآداب الأوربية جمعاء بغريزة التحليل النفسانى وفضائل الوضوح والمنطق والتناسب والاتزان التى نلمحها فى آثار أكبر ممثليه منذ القرن السابع عشر حتى يومنا هذا

وأن بول بورجيه لتتجلى فى قصصه هذه الروح التقليدية العنصرية فى أشد مظاهرها ، فهو لا يهمه أن يسرد لك الوقائع التى تمر بأبطاله قدر ما يحاول أن يميط اللثام عن أسرار نفوسهم وحركاتها وتقلباتها ومنازعها ناظراً اليها كما ينظر العالم النباتى الى أزهاره نظرة تلحق الفن بالعلم وتجعل من الأديب باحثاً نفسيا ومصلحا اجتماعيا

وهو فى قصته « أكاذيب » يجتهد فى أن يكشف عن خلق المرأة العصرية الولوع بالترف وعيشة البذخ وكيف أنها تبذل كل غال فى سبيل أن تحتفظ بنعيمها المادى ولو على انقاض عواطفها

* * *

« رينيه فانسى » شاب فى مقتبل العمر تملأ نفسه حرارة الصبا وتفيض مشاعره برغبات الطموح . أديب ناشىء لا يزال به بعض الغرور ولكنه غرور يساعده على تحقيق أحلامه فهو قد نجح فى رواية كتبها للمسرح واشتهر بها شهرة عظيمة فتحت له صالونات باريس

لم يكن هذا الشاب بالرجل الذى عرك الحياة وكانت روحه ما تزال تحتفظ بتلك السذاجة والبراءة الصبيانية الفاتنة التى لم تقوضها بعد عوامل الخيبة ولم تؤثر

فى جوهرها النقى لا الالام النفسانية ولا حقائق الواقع المزرية . وهو فى أول عهده بالشهرة كان كالضرير يبهره النور الذى انتشر فجأة حواليه فلم يكن يستطيع أن يتبين مدى أعماله ولا ان يحكم عقله على قلبه

وكان يعطف على فتاة ساذجة مثله وديعة فى صفاء وصمت تحبه الحب كله وترقب بعين ملؤها السعادة والاعجاب تلك الهالة الرائعة التى تحيط بحبيبها وتغرى به النساء

وكان مزعما الاقتران بها والعيش معها عيشة هادئة موزعة بين الحب السعيد المطمئن وارادة العمل الفنى المقدس . غير أن « روزالى » لم تكن بالفتاة البلهاء . وكانت على الرغم منها تستشعر فى صميم نفسها أن حبيبها قد تبدل بعض الشىء وأن الشهرة وذيوع الصيت والمجد الطارىء المخيف وتهافت الناس على التعرف إلى نابغ جديد كل هذه العوامل ربما أفسدت عليها أحلامها واستلبت منها قلب حبيبها

وكأن القضاء الساخر قد أعدها لتكون فريسة له وكأنها أحست فى نفسها ذلك فلم تتمكن البتة من الاحتفاظ بالرجل الذى وهبته كل حياتها

* * *

وهبط به ذات يوم صديق له من الكتاب المشهورين يدعى « كلود لارشيه » ودعاه الى حفلة عند سيدة سرية من صاحبات الصالونات الكبيرة وأخبره باعجابها الشديد به ، وأنها جاءت خصيصا فى قصرها بفرقة من الممثلين لتمثيل روايته التى طبقت شهرتها باريس . وأصبحت حديث الأندية المتأدبة كلها

تردد الشاب أول الأمر ولكنه أذعن فى النهاية لنصح صديقه وذهب الاثنان الى قصر مدام مورين واستقبل رينيه بجميع مظاهر الحفاوة واحتاطت به النسوة متفحصات هامسات معجبات بهذا الشاب الصاعد إلى قمة المجد بخطى جبار

وكان رينيه خجولا نفورا لا يحسن آداب المجتمعات الكبيرة ولا يدرى كيف وبماذا يجيب أولئك النسوة على كل مايبدينه من أفانين المديح

والاطراء . وكانت هذه السذاجة نفسها سر نجاحه الكبير من حيث لايدرى ، بل كانت فتنتها تفوق سحرا وجاذبية فتنة الشهرة نفسها

ولاح لصاحبة القصر مدام مورين أن هذا الفتى مخلوق غريب وأنه ليس على شاكلة الرجال الآخرين الذين يؤمون دارها . فأخذت تلحظه بنظر متفرس ثاقب وترمقه فى الآونة بعد الأخرى بعين ملؤها العطف والابتسام والتشجيع . وزادها تعلقا به أن رأت النساء جميعا يخطبن وده ويحاولن استمالته بكل ماأوتين من دعابة ورقة ودهاء

وكان هو كالمبهوت يخيل اليه أن عالما جديداً قد فتح أمامه وأن حياة زاخرة بالمال والجمـــال قد تفجرت بغتة حواليه تكاد تغمره وتنسيه بيئته وحبه وعشيرته كلها

وفى ختام الحفلة بعد أن صادفت روايته من المدعوين كل اطراء تقدمت اليه مدام مورين ودعته لزيارة خاصة فى ساعة محدودة ويوم محدود

وخرج من لدنها مسلوب الحول طائر اللب مشدوها بما سمع ورأى ، تبدوله صورة تلك المرأة من خلال أحلامه وميوله كأشعة الشمس الساطعة تحرك مولدات الأرض الخصبة البكر وتينع أزاهيرها وثمارها

وكانت مدام مورين امرأة ذات جمال رائع ، شخصية عميقة فيها من مفاتن الانوثة مايغوى رجلا كاملا فكيف بهذا الشاب الذى لم يعرف الحياة إلا عن الكتب وأخيلة الشعراء . لم يستطع أن يفهم أى النساء هى ولا ماتكنه نفسها من غرائز دفينة تجتهد بكل ماأوتيت من مهارة وخبث فى اخفاء حقيقتها عن الجميع

كانت امرأة ولوعا بالترف خبيثة ماكرة هادئة فى لؤم محترس رصين تظهر فى المجتمع بمظهر السيدة الفاضلة وتأتى فى الخفاء كل محرم فى سبيل أن تحتفظ بمقامها بين أترابها وفى سبيل أن تنعم بالملبس الفاخر والجاه العريض مضحية بعرضها غيرآبهة لأى وازع نفسى أو مخلفة بأى تبكيت ضمير مادام الكل يحترمها ومادام صالونها مايزال ملتقى عليـــة القوم وسراتهم . لم تأنف من أن تتخذ لها عشيقاً هو البارون ديفورج ، رجل فى الخمسين من عمره ، متمول عاطل ينقدها

obeikandi.com

ماتشاء عن سعة ويتمتع بجسمها الغض فى الآونة بعد الأخرى كلما راق له ذلك دون ان يعبأ على الاطلاق بحياتها الخاصة ، ودون أن يفرض عليها الأمانة له عالماً حق العلم ان امرأة كهذه محال أن تخلص لشيخ مثله ، ومحال أن تعطيه إلا على قدر مايدفع لها

وكان زوجها فقيراً بالنسبة لعشيقها لاقبل له بتحمل نفقاتها يحبها حباً جماً ولكن خلقه الطائش وطيبة قلبه ومظهر قريبته المتحفظ المهيب كان يمنعه من أن يخطر على باله لحظة أى شك فى سلوكها

ولكنها كانت امرأة كبقية النساء يجتمع فى قلبها حب المصلحة بحب الحياة وتتنازع نفسها عوامل شتى من الرغبة فى التمتع بعواطفها والشعور بنفسها محبة محبوبة كيما تستكمل سعادتها من ناحية المادة وناحية الروح . وخيل اليها أن الفتى ربنيه يمكنه أن يملأ ذلك الفراغ من نفسها وأن يشبع احساسها النسوى بذلك العطف الوجدانى والاستمتاع الجنسى الذى لاتستطيع المرأة الا أن تطلبه مهما ابتسمت لها الدنيا عن زخرف ونعيم

ولكى تقع فى نفس الشاب موقع الحب استخدمت كل ماتكنه طبيعتها من مواهب فى الكذب نادرة . فاخذت تتحدث اليه ببساطة وبراءة وتبدو امامه فى حلة من الطهر والنقاء كعذراء ماتزال فى أول عهدها بالرجل والحب . تروغ منه وتشجعه على التمادى . تمنيه ثم تخيب أمله . أقدر ما تكون على التلاعب بقلب الفتى والتمكن منه بالاحساس الذى يحبه ، أى الهفة والسذاجة والهوى المخلص العميق

ووقع ربنيه فى حبائلها وظنها مثال الكمال والطهر ، آية شعرية يستلهم منها وحيه

وشيئاً فشيئاً بعد أن عذبته وتمنعت عليه وطبعت فى نفسه تلك الصورة الرائعة الجليلة من شخصها هوت ذات يوم بين احضانه كأنما هى تهوى تحت سلطان حب جارف . فانتشى ربنيه وخيل اليه أن رجولته وعبقريته وجماله

ورقة حديثه هي التي الهمت المرأة هذا الحب وهي التي حققت له في النهاية السعادة القصوى التي طالما كان يحلم بها ...

* * *

تجاه شخصية هذا الفتى الساذج تقوم شخصية صديقه الكاتب كلودلارشيه وهو رجل صادق النظرة إلى الحياة الا أنه حاد المزاج ملتهب الميول شهوى النزعات ضعيف الارادة يعشق الممثلة كوليت ويدرك تمام الادراك انها تخونه في كل لحظة ولكن خيانتها المطردة هذه كانت تثير فيه عاطفة الحب وتؤجج شهوته فلا يلبث أن يقاطعها حتى تخدعة فتستفز غيرته فلا يستطيع أن يطفىء نار تلك الغيرة الا بالعودة الى عشيقته وافناء حقده وغله في محاسن جسمها

وكان كلود عبد المرأة تفعل به مانشاء . وكان لذلك يفهم المرأة ويعلم حقيقة مايجرى بين صديقه ومدام مورين، غير انه لم يحاول البتة أن يحول بين رينيه وبينها لاعتقاده الراسخ ان الاديب أو المفكر أو الفنان يجب أن يدرس الحياة عن كثب ولا يخشاها ولا يفر منها ، بل على النقيض ، عليه أن يرتمي بجمعه في غمارها فان تغلب عليها فاز وان دمرته خرج منها على الاقل وقد عاش واختبر وتألم

* * *

وازدهرت الدنيا في عيني رينيه . واضطرم في شرايينه دم الصبا . وشارفت نفسه كل ماتكنه الانوثة المكتملة من خفايا الاسرار الجنسية ومايشيع فيها من حنان غريب تمتزج فيه الشهوة بالأمومة والحنو بالرقه المعبودة الساحرة

وكان كالشبان السذج جميعاً يضفي على حبيبته مايحول بخياله من فضائل وما تنزع اليه روحه من سمو. فكان لايرى المرأة بقدر مايرى شخصه ممثلا فيها ولكنه كان سعيدا بها سعيدا بهبتها الكاملة ، سعيداً باخلاصها الطاهر ، سعيدا بكبريائه ونصره مؤمنا بحبيبته كايمانه بصلاح النفس البشرية للفضيلة والخير . واتخذ لها وكراً صغيرا في إحدى نواحي باريس وكانا يلتقيان فيه بمأمن من العيون ويتبادلان هواهما بعيدا عن ضجة المدينه في هدأة الأصيل والشمس ترسل

حتى فراشهما آخر اشعاتها كأنما هي تودعهما الى حين

وكانا يلتقيان في المدينة ايضاً ، يتسايران في الشوارع المنعزلة او يدخلان متحف اللوفر متنقلين بين الاثار الرائعة التي لاتحدثهما الا عن المجد والحب والجمال

وكانت حين تقابله تتصنع الفرح الغرير والنشوة المتأملة والحلم الرائق المستفيض وكأنها تخلص الى ذراعيه من آلام مبرحة تعانيها حيث تعيش . . وبينما هما يتحادثان ويتناجيان كانت لاتفتأ تلحظ حركاتها وسكناتها وتراقب كل كلمة تخرج من فمها . وتعد على نفسها النكات مخافة أن تبدر منها بادرة تكشف له عن دخيلة أمرها . وكانت لذة الكذب والرياء هذه أفعل في احساسها وأشد وقعا وأبعد تأثيراً من لذة الحب نفسه . بل هي في الداخل لم تكن قد نزعت الى الحب إلا لتستمري فيه لذة الخديعة التي طبعت عليها وسرت في عروقها مسرى الدم ، فهي تكذب وتغش وتخون وترائي كأنما هي تؤدي وظيفة عضوية في بساطة وعدم احتفال رهيب . ولم يكن ليخطر على بالها أنه قد يتألم يوما بسببها بل لم تكن تفكر البتة أنه يمكن أن يكون للألم وجود في نفسه مادامت تهبه جسمها وتسعده بهذه الهبة ساعات . . . وكانت هي تكره الألم وتحاربه وتخشى منه على جمالها وسلطانها متاهبة على الدوام لخنق فؤادها دون رحمة يوم تشعر أن الحب صنو الألم وأن القبلة الحلوة قد تحفر الطريق أمامها نحو الشيخوخة . هذا الاحساس كان بمنزلة درع تتقي به صدمات العاطفة وتسيطر عليها اذ غرامها بالمظهر الفاتن كان أعلق باحساسها من ولعها بالحب نفسه . . .

وعاش رينيه هذه العيشة بضعة أشهر كأنه يحلق في سماء أبدا زاهية مصحية لايكلف نفسه عناء النظر الى حقيقة من يحب . تملأ جوانحه الثقة كما يملأ فيض السعادة قلبه وحواسه

ولكنه على مر الزمن وتوالي الصلة بدأ يلمح في حبيبته شيئاً من الانكماش وبعض التكتم ورغبة حذرة خفية في اجتناب الصراحة والاحتفاظ و من الغموض والظلمة لم يكن ليتمكن من تمزيقه والنفاذ الى قرارته

وكذبت عليه عدة مرات فى أشياء كان يعلم حقيقتها حق العلم فأوجس خيفة وانجابت عن ذهنه بعض السحب وبدأ عقله الراقد يفكر فلم يتردد وأخذ يراقبها ...

احتواه شك هائل وداخلته الريب الفظيعة وسلطت عليه الغيرة جميع ضروب القلق والحسرة والمهانة والغيظ ، فابصر بنفسه كالضائع يفتقد الحقيقة فلا يجدها خشناً مع رفاقه غليظاً مستبداً فى بيته ساخطاً متبرما بالعالم ، يود أن يستقر على أمر واضح ولا يستطيع

ولكن اتقان مدام مورين الدور الذى كانت تمثله وصورة العذراء النقية التى حفرتها فى ذهنه منها وظرفها ودلالها ورقيق عطفها ـ كل ذلك كان يبدد شكوكه تارة ويثيرها فى صدره تارة أخرى . ولم يكن ليقدر البتة على التحرر من الاطار الذهبى الفاتن الذى اعتاد أن يرى فيه رسم حبيبته ولم يكن ليستطيع أن يتخيل هنيهة أن هذا الملك الكريم قد يكون فى الواقع أفتك من شيطان رجيم

الى أن حدث أن سمع بعضهم يغتابها وابصرها عن غير قصد ذات ليلة فى مقصورتها فى المسرح صحبة زوجها والبارون ديفورج ...

تحققت ظنونه فجأة وهاله ما رأى فترك المسرح لفوره خائر الحول محطم الأعصاب مهدود القوى وراح يجوب الشوارع هاذيا باكيا يفكر فى الماضى ويقيسه الى الحاضر ويذكر ما كانت عليه معه وما هى عليه فى الحقيقة فيكاد يجن جنوناً . وكان يستفز سخطه واستنكاره أنها لعبت به وجعلت منه أداة للتسلية وقتل الوقت وأن حبها كان مجرد أكاذيب واخلاصها أيضا وحديثها وضوتها وكل شىء فيها ...

وصار رينيه لا يؤمن بالحياة ولا بالخير ولا بالفضائل بل عاد لا يؤمن بمواهبه كأنما انهيار مثله الأعلى قد حطم فى الوقت نفسه عقله وقلبه على السواء . وشاع فى صدره البغض وعز عليه كيف يخيب فى حبه الأول . إلا أنه كان مايزال يعشق تلك المرأة فانقلب بغضه بدافع الحب إلى يأس مرير ، ولم يفكر البتة فى الانتقام منها بل ذهب اليها وصارحها بالواقع واستحلفها بكل غال من الساعات

التى قضياها معاً أن تهجر بيتها وعشيقها وحياة الترف المزرية التى تعيشها ، وأن تفر معه الى حيث الحب والحرية

هزأت منه فى صميم نفسها وعبثت بسذاجته التى لا يريد الاقلاع عنها ورفضت اجابته الى سؤله فخرج من لدنها مستشيطاً حانقاً يلعن اللحظة التى عرفها فيها ويجتهد فى أن يتمالك رشده وينسى . ولكن الطعنة كانت فى الشغاف والامل كان رحباً جميلا والخير كان ممثلا فيها والحب كله كان يترقرق من عينيها نظرات وابتسامات . لا . لم يستطع رينيه احتمال هذا ودب فى نفسه القنوط وحاطه العدم من كل صوب ، فطأطأ هامته عياء وعاد لا يفكر فى شىء واتجه بخطى ثابتة إلى منزله ثم دخل حجرته وهناك تناول مسدسه وأطلقه على صدره فخر لفوره صريعاً مضرجاً بدمه

* * *

وما كاد يبلغ أمه الخبر حتى عراها شىء من الصعق والذهول وسارعت اليه وقد طارت نفسها شعاعا ، غير متصورة أن ابنها الوحيد المعبود الذى بذلت فى سبيله جهد حياتها وحمته من كل غائلة ، وصاغته على مثال نفسها النبيلة الطاهرة . لا يجد من نفسه قوى يقاوم بها التجربة فيصبح الفريسة العاجزة المسكينة لعبث المرأة وغدرها . . .

وأفجع من هذا كانت حال روزالى حبيبته الأولى فان اليأس استحكم من قلبها وابتلتها مرارة الخيبة بضرب من الاسى الممض وانخفاض القوى والحسرة والذبول ، وكما خيب القدر حبيبها فى حبه الاول كذلك صنع بها فهما متباعدان متقاربان يلتقيان فى المأساة ويفترقان فى الهوى ، تجمع بينهما رابطة الالم وتقصيهما عن السعادة سخرية القضاء .

واجتمع الكل عند فراش رينيه ، والدته المنكودة وحبيبته التعسة وصديقه الذى علمه الحياة . وظلوا بجواره يرعونه بعين عنايتهم ويسهرون عليه ويرسلون الى صدره المكلوم ماوعته صدورهم من حب وافتداء . الى أن تغلبت عزيمتهم على الخطر الداهم فانقذوا الفتى وانتزعوا جسمه سليما من بين براثن العدم

الا أن قلبه كان مايزال فى عداد الاموات . . .

واستفاق رينيه من سباته وخرج من الفاجعة كالخارج من القبر . يرنو الى الطبيعة بعين جديدة . ويستقبل الدنيا فى حذر واحتراس . ويستكشف الحياة كالطفل فى كل خطوة

والتقى ذات يوم بصديقه كلود لارشيه فنظر اليه هذا نظرة متفرسة عميقة ثم هز رأسه وتنهد وقال فى تؤدة وايمان : « الآن فقط . الآن يا صديقى يمكنك أن تخلق العمل الفنى الانسانى الصحيح . لقد خبرت الحياة وتألمت . لا يجب أن تأسف على ما وقع ! . . . »

فأشاح رينيه بوجهه قليلا وقطب حاجبيه وغض بصره ولم يحر جوابا

وفى هذه الاثناء كان البارون ديفورج - عشيق مدام مورين - أسعد الجميع يحتسى كأس خمر معتقة ويعرض بالنسوة الجميلات وهو يبتسم ! . . .

العـــــذاب

Le Calvaire

لاوكتاف ميربو

أوكتاف ميربو روائى فرنسى شهير يصور العادات والاخلاق والتقاليد فى أسلوب حاد عنيف . تقرأه فكأنك تسبح على ظهر بحر متلاطم أو كأنك تستمع لفيض من الأنغام الداوية المذهلة . وهو كاتب مسرحى وقصصى وناقد فنى لاذع هجام . والقصة التى نلخصها له أبدع قصصه على الاطلاق ولموضوعها مساس بجزء من حياتنا الاجتماعية المصرية وهى فوق ذلك تتصل بالحياة الانسانية العامة فى كل بيئة وكل زمن

نشأ فى قرية من قرى فرنسا بعيدا عن ضوضاء المدن وسط الطبيعة الجميلة الهادئة . إلا أنه لم يشعر بالراحة أبداً .

كان رقيق العاطفة ، حاد المزاج ، سريع التأثر ، لاتكاد تفرحه نكتة لطيفة أو ابتسامة عذبة حتى ينقلب بغتة فتبدو على وجهه الناحل آثار الهم والشجن . فيفر من المجتمعات الى حيث يخلو بقلبه يناجيه ويتلمس الى الله ان يملأ فراغه ببعض السعادة

وكانت أمه على شاكلته امرأة مريضة منخلعة الأعصاب كثيرة الوساوس . مصابة بشبه خوف من الناس والحياة .

ولم تكن لتفارق ذهنها فكرة الانتحار وكانت لاتنفك ترى أمام عينيها شبح والدتها المسكينة التى انتحرت ذات يوم بأن شنقت نفسها بحبل غليظ ربطته الى الثريا الكبيرة التى كانت معلقة فى سقف غرفة الاستقبال

وعبثا حاول الزوج ان يطرد عن مخيلة زوجه هذا الخاطر الفاجع . فصورة المنتحرة كانت تتمثل لها على الدوام فتسرى القشعريرة الباردة فى جسمها وتخشى أن تنتهى هى أيضا كما انتهت أمها فتبكى والرعب يملأ نفسها وتتجه الى ابنهـــا الوحيد ولا غاية لها إلا انقاذه من المرض الذى تعانيه

كانت تراه حزينا مثلها . حساساً . عصبيا . تأكله الهموم المخيلة . ويذهب به الضجر الى أبعد مذاهب اليأس . يشحب لونه ويهزل بدنه ويستدق شعوره الى حد الألم فتوقن الأم ان العلة وراثية فيه . وان الضعف العام انحدر من أفراد أسرتها اليه . وانه لو بقى فى الريف وظل يستمرىء حلاوة العيش الرضى ورخاوة الحلم المعسول . وبهجة الطبيعة الهادئة فلا بد أن يتسمم وجدانه ، ويألف الكسل والتواكل والراحة والاستخذاء . ومن يدرى ؟ فقد تنتابه جاذبية الانتحار وقد تكتنفه الهواجس وقد يعتزم الخلاص فيقدم على ما أقدمت عليه جدته وهكذا يموت ضحية الجرثومة الفاتكة التى نقلت اليه عدواها هى أمه . . أقرب الناس اليه وأشدهم حباً له !

عارض الوالد فى ذلك وأراد أن يشرف بنفسه على تربية ولده فجاءه بمعلم خاص . وجعل يراقبه ويرشده ويحوطه بعين عنايته ويسهر عليه والفتى يترعرع . نفور الخلق ، طائشا ، متبرماً ، مستهترا ، يتنقل فى لحظة وبدون مسوغ من الفرح الى الكآبة ومن الهزل الى الجد . من التفكير الى العبث ومن الضحك الى البكاء

توفيت أمه فازداد شعوره بالوحدة . وخيل اليه انه فقد قوة كبيرة طالما استند اليها وأحس بنفسه مخلوقا ناقصا محيرا . يهيم على وجهه فى طلب شىء يجهله . ولا سبيل لحياة الريف المتشابهة ان تبل ظمأه النفسى أبدا

اعلنت الحرب السبعينية فانخرط فى سلك الجيش وأدى للوطن واجبه ثم عاد الى قريته ولم يكد يدخلها حتى جاءه نعى أبيه فمضى الى البيت الذى ولد فيه فألفاه ساكنا هامدا خاويا لم يعد يضم بين جدرانه غير الخادم الكهل والخادمة العجوز يبكيان سيدهما ويذكران الماضى ، ويقبلان على الفتى . يحاول كل منهما تخفيف لوعته بعبارات العزاء الريفية البسيطة التى تزيد المرء ألماً على ألم . .

لم يستطيع جان فرانسوا مارى البقاء فى القرية لحظة واحدة . كان لا يكاد يخطو فى غرف البيت حتى يتمثل شبح أمه ويستقيم أمام ناظريه هيكل أبيه وتتأجج فى أنحاء ضلوعه مختلف عوامل الشجن فيظل ساهداً يفكر فى حياته وفيما فاعل فى الغد وفى باريس الفاتنة التى شاهدها عن كثب هووأغرم بها واحتلت فؤاده وليس فى وسعه أن يعيش بعيداً عنها

وهكذا ودع جان قريته الصغيرة مسقط رأسه وموطن صباه وقبل الخادمين العجوزين وتزود من الطبيعة بنظرة أخيرة واستقل القطار ورحل الى باريس

* * *

وكان قد أولع بالأدب لفرط دقة إحساسه . فلم يكن يصادف كتاباً جديداً إلا ويقرأه . ولم يكن يلقى أديباً ناشئاً إلا ويجلس اليه ويستمع لحديثه ويشاركه آلامه وآماله . وما كان أحلى تلك الساعات التى أنفقها فى مطالعة دواوين الشعراء . يلتمس فيها ملجأ لنفسه . وساوى لقلبه . وغذاء لوجدانه . ومعنى سامياً للحياة

وأراد أن ينفس عن صدره فشرع فى تاليف قصة يودعها خلاصة أفكاره وصفوة عواطفه وما يظن أنه قد عرفه عن شؤون الدنيا وألوان الجمال وأسرار القلب البشرى

واستهوته حياة الفنانين ، ومافيها من لهو ومجانة وعبث وتشرد . وضاعف حبه لها أنه كان حزينا وهى ضاحكة . وانه كان رصيناً وهى هازئة . وانه كان يحمل هموم السنين وهى لاتريد أن تحمل هم يوم واحد !

وتعرف إلى مصور شاب . حلو الحديث . لطيف المعشر . يعمل فى اجتهاد ونشاط لبلوغ ذروة الشهرة وتحقيق آمال الصبا

توثقت بينها عرى الصداقة وتوسم جان فى المصور النبوغ والتوقد . فاطمأن اليه واستراح لخلطته وأنزله من نفسه منزلة الصديق المفضل .

وكان يذهب اليه فى هدأة الليل فيجلس الصديقان وأمامهما أكواب الشاى وحولهما صور النسوة الجميلات وبين أصابعهما السجائر يدخنان ويشربان

ويتبادلان الحديث العذب الطويل . ويقص المصور على صديقه وقائعه الغرامية ويفضي اليه جان بكل مايعتلج فى صدره من اسى والمصور يحاول أن يكبح عواطف الشاب ويلطف من سورته ولكن جان كان يسترسل فى التحدث عن الحياة وعن مصائبها وغدرها وتفاهتها وغشومة القدر الذى ينزل الكوارث الناس فى غيرما عدل أو روية كقوة عمياء تبطش ولاترى . أو كجبار فاسد شرير يلاعب جمعا من الاطفال لايلبثون أن يستأنسوا به ويركنوا اليه حتى يمكر بهم فيغافلهم ويصرع الكل واحداً بعد الآخر

هذه النزعة المتشائمة هى التى كانت مستولية على جان . وهى التى كان يبصر من خلالها الوان الحياة . إلا أنه بالرغم من هذا كان طيباً . وكان خيالياً . يصدر على الحياة العامة احكاماً سوداء ولا يستطيع أن يفهم حق الفهم شخصية إنسانية واحدة من مختلف الشخصيات التى تمر به يومياً ولا يعنى بدراستها وتحليلها وتكوين فكرة واضحة عنها

كانت نظرته إلى العالم نظرة فيلسوف يقرر الآراء سلفاً ويفترض الافتراضات ويجمع على حقيقة واحدة أما الحقائق المتباينة فلم تكن لتستوقفه لحظة .

كان يفتقر الى قوة الملاحظة التى تنفذ الى بواطن الاشياء والأشخاص فتستشف جوهرها الدفين الذى تحاول العادات والاوضاع والتقاليد أن تلاشيه أو تذود عنه وتحجبه عن الابصار

وفى يوم من أيام الشتاء وجان جالس إلى صديقه يتحاوران ويتجادلان والريح تعصف فى الخارج وشآبيب المطر تتساقط على الواح النوافذ . والحجرة دافئة . والشاى المعطر ينبه الاعصاب والافكار ، سمع طرق على الباب وخيل لجان أن حفيف ثوب فضفاض قد اختلط الساعة بصفير الريح . فقام المصور وفتح الباب وتنحى قليلا وإذا امرأة بارعة الجمال عليها معطف من الفراء البنى البديع تدخل بقدم ثابته وتحيى المصور ثم تلقى بنفسها على المقعد تعبة لاهثة ضاحكة

هى امرأة صبية ذات شعر أسود غزير تسترسل ضفائره على خديها وجبهة مشرقة عريضة ووجه مستدير . وفم صغير وشفتان مكتنزتان ولون غريب يترقرق على محياها ويسطع سطوعا عجيبا يمتزج فيه البياض الناصع بضرب من الصفرة الخفيفة

تزيده بهاء وفتنة . اما عيناها فسوداوان لوزيتان عميقتان يتراءى فيهما الصفاء أول وهلة وتنبعث منهما شتى الاحساسات الكبيرة كالنزاهة والصراحة والمودة . إلى أنها كانت تقطب حاجبيها وتشيح بوجهها فتلتمع فى حدقتيها بغتة بوارق خفية يهلع لها الناظر ويكاد ينكر ما أحس به الساعه امامها من غبطة واحترام وتقدير

عرفها المصور الى صديقه فنظرت المرأة الى جان نظرة فاحصة واقبلت عليـــه تحادثه كأنها تعرفه من زمن بعيد ثم دعته لزيارتها وجعلت تلوم المصور على جفائه وتقول له إن صديقها شارل غاضب عليـــه ويود أن يراه وأنها ماجابت إلا للاستفسار عن صحته والاستعلام عن سبب تغيبه ودعوته الى منزلها فى الغد

ومكثت هنيهة ثم استأذنت بالانصراف . ولما أغلق الباب وعاد المصور الى رفيقه خيل لجان أن الغرفة قد اختفى منهـا الضياء وأظلمت فجأة وانتشر فى جنباتها السكون . . .

احس ان شيئاً ثميناً قد سلب منه . وأن قوة محيية قد انتزعت من صدره . وأنه مطرق واجم مشدوه

طاب الى صديقه ان يحدثه عنها . فما كان من المصور إلا أن حمل عليها حملة هائلة . صاح بجان والكراهية تملأ نفسه والحقد يدوى فى صوته . وعـــلائم الازدراء والاشمئزاز مرتسمة على وجهه . وأخذ يشرح له حقيقة تلك المخلوقة وما تستر تحت مظهر الفضيلة من رذيلة وخبث ونفاق

اخبره أنها أمرأة لعوب طائشة هوجاء متقلبة العواطف . متلونة الاحساس . اولع ماتكون بتعذيب الرجال وابتزاز أموالهم وإذلال كبريائهم والتلذذ بما تحدثه لهم من متاعب وآلام

وقص المصور على صاحبه كيف أن شارل عشيقها كان يجيء إلى هنا فاراً منها ، ساخطا عليها ، ناقماً على الساعة التى أحبها فيها . فيجلس على هـذا المقعد ويصرخ ويتوسل ويبكى شارحا عذابه . مستفيضاً فى شكواه . يبحث عن طريقة للخلاص منها ولكن على غير جدوى

واسهب المصور فى تعليقاته وتحاليله وجان يستمع له باذن مرهفة . ولما أن فرغ تطلع اليه الشاب وابتسم وجعل يهز كتفيه هز من لايصدق ويتهم الآخر لمبالغة والتحامل

اجل . لم يكن فى وسع جان وقد شاهد تلك الجبهة اللامعة وتينك العينين الصافيتين وذلك المظهر المحتشم الرصين أن يصدق ان هذا الاطار الكامل لايعبر عن خلق طيب سمح . حاول المصور اقناعه ولكن المرأة كانت قد طبعت فى خياله منها صورة ثابتة للخير . كما تطبع صور المعابد فى نفس المؤمن رموز الصلاح والتقوى

خرج من لدن صديقه وفكره محتل بها . يراها حيثما سار وأنى ذهب . تتمثل له تارة فى عرض الطريق . وطوراً فى ظلمة وحدته . لايفتح كتابا إلا ويبصر عينيها الصافيتين من خلال سطوره . لايكتب عن المرأة حرفا الا ويذكر هذه المرأة . لايتحدث عن النساء إلا ويتخذ منها القدوة الصالحة لهن جميعاً

فتن بها وراح يجوب باريس باحثاً عنها . يرتاد الأندية والمسارح وملاعب الرياضة ودور السينما . عل عينه الشاردة تقع فجأة عليها

واستعبد لخياله وضاعفت دقة احساسه هذا الاستعباد فلم يستطع المقاومة . واعتزم فى النهاية الذهاب اليها . وطرق بابها . ولو أنه لم يرها غير مرة واحدة

واتجه حيث تسكن وصعد الدرج وقلبه يخفق وأسنانه تصطك وتقدير الخيبة يحز فى صدره . ودق الجرس فخرجت اليه الخادم واقتادته إلى البهو الكبير وذهبت تنبىء سيدتها بمقدمه

دخلت عليه فخف لتحيتها مضطرب الاشارات جم اللفتات ممتقع اللون . يتلعثم ويروغ بعينيه ويتنفس تنفسا ثقيلا متداركا كتلميذ فى أول موقف حب . وكان يتبع جولييت كلبها الأبيض الصغير المدلل المحبوب . يقفز حواليها . ويمرغ رأسه فى أطراف ثوبها ويعوى عواء متقطعاً وهى تداعبه وتأخذه بين يديها فتقبله ثم تلقى به بعيداً وتضحك .. وكانت مرتدية ثوباً بنفسجيا بديعا يظهر

تقاطيع جسمها المتسقة المليئة وينحدر حتى قدميها الصغيرتين اللتين تشف جواربهما عن بشرة نقية ساطعة . استقبلت جان أحسن استقبال ورحبت به وسألته عن صاحبه . وشجعته على المجيء لرؤيتها . وقالت أنها سعيدة بمعرفتها إياه وانه راق لها . وانه نابغة وظريف . ثم تحدثت عن كلبها وعن شغفها العظيم به وعن الاعيبه ونوادره وانحنت فاخذته بين يديها ثانيا وجعلت تهدهده وتناغيه كما تفعل أم برضيعها

واستهوت الشاب منها هذه البساطة والرقة ولم يكن لينتظر مثل هذه الحفاوة فاطال الجلوس وشرع يتكلم عن حياته ومؤلفه ومستقبله وحاجته الى مخلوق ممتاز يفهمه ويعطف عليه

وقام ليرحل فابتسمت له ابتسامة ساحرة وأمالت راسها قليلا وقدمت يدها تصافحه فتناولها وأبقاها بين أصابعه لحظة ثم حدق الى المرأة تحديقا شديداً وقبل يدها قبلة حارة . فابتسمت أيضا وشيعته حتى الباب وطلبت اليه فى لهجة عذبة أن يعود لزيارتها متى شاء وقالت انها تكون سعيدة للغاية لو استطاعت ان تجعل منه صديقها المنشود ..

كاد الشاب يجن من الفرح . وما ان هبط الشارع حتى أخذ يغنى ويصفر ويلوح فى الهواء بعصاه ويركض بدل ان يمشى وطيف جولييت يلازمه ويستحث خطاه ويمنيه بالهناء والحب

وابتسمت له الدنيا وفارقت الكآبة محياه وهجر التشاؤم والحزن والضجر وبات يظن ان انسانا جديداً قد استفاق فيه وان قوى خارقة قد اضطرمت فى صدره وانه يعيش فى النهاية . يعيش كما يجب أن يعيش جميع الناس ...

وهدأت أعصابه . واستقر بعض الشيء . وألف رؤية جولييت واعتاد الذهاب اليها فى المواعيد التى كانت تحددها له

وبدأ يزورها فى الشهر مرتين ثم تدرج الى عدة مرات فى الأسبوع وانتهى بزيارتها كل يوم

وكانت لاتلبث ان تراه حتى تنهلل لمقدمه وتسرع اليه باشة مغتبطة

تفضي اليه بهمومها وتشكو قسوة شارل . وتسترشد بنصحه . وتستبقيه للعشاء ثم ترخي ابصارها وتتنهد فى حياء مباغت لطيف كحياء العذارى

واستولت على قلب جان دون ان يبدو عليها أنها قامت بأى مجهود . وكان الشاب يزداد اشتعالا يوما بعد يوم . يفكر فى المجاهرة باحساسه ولا يجسر

وبعد ان كانت نفسه قد بدأت تستريح عاوده اضطرابه القديم . والتهب مزاجه . وأصبح بين ألمين . ألم الحب . وألم العجز والجبن . وما ينشأ عنه من حسرة ذليلة . ويأس من بلوغ الغاية التى يراها كل يوم أمام عينيه . فى متناول يده ، ولا يستطيع ان يضمها اليه ويظفر بها

وفى ذات يوم وقد ضاق صدره وعيل صبره وشعر ان لابد له من الاقدام اذا شاء ان يهدأ ذهب اليها وبينا هما يتحادثان جذبها اليه وأمسك بذراعيها وأسر اليها لوعته

تراخى جسمها ومثلت دور المرأة الضعيفة هاجمها الرجل للقوى فخضعت بعد كفاح طويل . .

وما ان أحس جان أنها أصبحت له حتى كاد يفقد صوابه من فرط الفرح فجثا عند قدميها وعرض عليها كل شىء : حياته وقلبه وشبابه والثروة التى خلفها له والده وكل ما ملكت يداه

سرت المرأة من نجاحها فى الخطوة الأولى وجعلت تستدرجه بشتى الحيل تجفوه ثم تقبل عليه ثم تتمنع ثم تستسلم كأنما هى أيضا تذعن لحب شديد لاقبل لها بالتغلب عليه

وأمهلته أياماً ثم أظهرت له رغبة عارضة فى النقود فأسرع وأمدها بمبلغ جسيم . فأنفقته لفورها فى شراء معطف وثوب وطلبت اليه مبلغاً آخر فأعطاها إياه عن طيب خاطر فابتاعت به أثواباً جديدة وقبعات وجوارب وأحذية وقمصانا وأقراطاً وأساور وكل ما تشتهيه المرأة من أفانين الترف والنعيم

كان المال ينساب بين أصابعها كالماء . وكانت تنفق عن سعة وبلا حساب

تنفق على نفسها وعلى صديقاتها مختالة مزهوة مفاخرة لا تلبث أن تحصل من الشاب على نقود حتى تبددها وتلح فى طلب غيرها وتغضب وتنفر وتعرض حتى تنال ما تريد فتبدده أيضا وتعود إلى ما كانت عليه غير آبهة لما قد يحل بصديقها من خراب

والتهبت عاطفة الغيرة فى نفس جان واتقد حبه وود أن يحظى بالمرأة وحده فرغب اليها أن تترك صديقها الأول وأصر على ذلك وتوسل واسترحم واستجدى فامتثلت لرغبته وطردت شارل

أرادت أن تبدل مسكنها وتقطن مع حبيبها فى حى فخم جميل فأجابها الى سؤالها وأمدها بالمال اللازم فابتاعت أجمل الأثاث . وأغلى الطنافس وأبدع الأستار . وأروع التماثيل . واتصلت بالخياطات الشهيرات وجعلت تفصل أثوابها على أحدث طراز وتفتن فى الظهور بمظهر الاميرة التى دانت لها وسائل النعمة وعرف جمالها كيف يفوز بأوفر قسط من متاع الحياة

وانصرفت إلى معيشة الترف . وجمعت حولها رهطا من الأصدقاء والمعجبين . وأرادت أن تبز أترابها . فكانت تبدو فى الملاهى وعليها أجمل زينة . وتغشى الحفلات صحبة الأغنياء والمولين تحادث هذا وتبسم لذاك وتمنى الآخر والكل متيم بها يتبعها كظلها ويرود حولها كما يرود الفراش حول النار !

وكان جان يشهد بعينى رأسه كيف تبتلع هذه المرأة ثروته الطائلة وكان يتعذب . يتعذب لا من أجل المال الضائع بل ليقينه أنها انما تتزين لغيره . وتحيا لغيره . وتؤثر الظهور فى المجتمعات على البقاء فى المنزل معه . تضجر من صحبته الطويلة . وتريد أن يراها الآخرون ويعجبوا بها ويتملقوها . لا لذة لها الا فى ان تكون قبلة الرغبات وهدف الشهوات ومحط البصر وملك الناس جميعا ! وكيف كان يستطيع جان أن يسمح بهذا وهو يحبها حبا يكاد يبلغ الجنون . يحاول أن يحتفظ بها لنفسه . أن يحرص عليها كحدقة عينه الغالية . أن يفر بها من باريس الملعونة . أن ينقذها من هذا الجو الفظيع الذى كاد يسممها ويقضى عليه

كاشفها بذلك فغضبت وتبرمت فجعل يتوسل اليها أن تظل فى البيت برفقته ليلة واحدة فقط . ولكن كان لابد لها أن تخرج . أن ترى أصدقاءها

وتستمع لاطرائهم . وتعيش وسط ضجيجهم . وتلتذ بفتنتها وسلطانها عليهم . أما جان فله أن يصطحبها أو يظل فى البيت . يتلوى حنقا ويستشيط غيظا ويتنقل والشكوك تأكله والغيرة تمزقه والحيرة تكتنفه ولا أنيس له غير الكلب الابيض الممقوت الذى ترعاه جولييت أكثر منه وتحبه كما لم تحب أى انسان . . .

هاله ما أنفقه عليها وشعر والرعب يملأ نفسه انه لم يبق معه غير مبلغ ضئيل لا يكفيهما مدى ثلاثة أشهر . فاختبل ولم يدر ماهو صانع وراح يستعطفها ويلتمس اليها ان تكف عن الاسراف والتبذير . ولكن قلبها القاسى لم يكن ليعرف الرحمة وما ان استوثقت من أنه لايزال يحبها وانه مغلول بضعفه اليها وانه طوع أمرها كما كان حتى طلبت اليه أن يبتاع لها العقد الثمين الذى شاهداه سويا فى واجهة أحد المخازن

اضطرب جان واسودت الدنيا فى عينيه وكان على وشك ان يعترف لها بالحقيقة غير أنها ابتسمت وقبلته فأطاع لفوره وابتاع لها العقد . ولكنه بعد بضعة أيام لم يستطع إلا ان يصارحها بالواقع ويخبرها والدمع يجول فى عينيه أنه يسير بخطى حثيثة نحو الخراب وان آخر ماتبقى من نقوده مبلغ ألفى فرنك

نصح لها بالاقتصاد فهزأت به وأعرضت عنه وأخذت تعيره وتزدريه وهى تقهقه قهقهة مزعجة ملؤها الغلظة والاثرة والوحشية

لم تعبأ به واستطردت حياتها ترتدى أجمل الثياب . وأغلى الجواهر . وتنفق كعادتها بلا حساب والفتى يرى ولا يفهم . . يفهم ويراجع نفسه ويود ألا يفهم ونوبات الجنون تعتريه . والافكار الشائنة تطوف بذهنه . والذل يهتاج أعصابه . والغيرة تعض قلبه كحيوان رابض فى موطن الحياة والحب منه ، وفى ذات ليلة أبصر جان على أرض البهو بطاقة فتناولها وما ان وقعت عليها عيناه وطالع اسم صاحبتها المتهتكة حتى فقد صوابه وأحس ان الحجرة تميد به فاستند الى الحائط وتمالك نفسه وجعل يصرخ مناديا جولييت فجاءت الخادمة وأخبرته أنها خرجت . وللحال استضاء عقله بنور ساطع غريب وخيل اليه أنه يرى بغتة كل شىء . فأسرع وارتدى معطفه ونزل الى الشارع جاحظ العينين مكفهر السحنة واستأجر عربة فانطلقت به الى هناك . . الى بيت البغى صاحبة البطاقة . . . وصل قبل جولييت

ولم تكد تمر بضع دقائق حتى أبصرها قادمة فتنحى قليلا وتجفز ثم هجم عليها وسد فمها بكفه واحتملها بالرغم منها وألقى بها فى جوف العربة وهى تتماص وتقاوم وتصيح

وما إن احتواها المنزل حتى أمسك بها وطرحها على الارض وجعل يضربها ويضربها ثم انسابت اصابعه المرتعشه إلى عنقها البض فطاش صوابه وأخذ يضغط عليه حتى رفت العيون واندلع اللسان وتمشت فى الوجه صفرة الموت فتركها وذهب ينادى الخادمة والجيران وهو يصرخ كالمجنون : أذهبو اليها لقد ماتت ! لقد ماتت !

واتجه الى منزل صديقه المصور وأخذ يبكى . وظن أنه قتلها واستراح ولكنهم أنبأوه بنجاتها فلم يستطع البقاء ورجع اليها

أجل عاد ثانيا . عاد أضعف مايكون بعد أن شارف البطولة لحظة . . عاد خاضعاً ذليلا تتصدق عليه بالمال وتمنحه فضلات القبل !

عز على صديقه المصور أن يراه على هذه الحال . فألهب فيه عاطفة الكبرياء ونصح له بالسفر وأرسله على نفقته الخاصة إلى بيت له فى احدى ضواحى باريس ولكن البعد زاده حبا ولوعة فجعل يراسل جولييت ويرجو منها أن تزوره فى وحدته ولو مرة . أجابته إلى طلبه وأتت فى عصر يوم وضاء جميل ومعها كلبها الابيض ولكن القرية لم تعجبها ولم تر فيها أى أثر للترف . ولا أى مجتمع يمكن أن يضم جمعا من المعجبين فتضجرت وندمت وخلفت الفتى وحيدا ورجعت الى باريس . أدرك جان أن لاسبيل لامتلاك هذه المرأة إلا بالمال . المال أيضا ودائما المال . فلم يتردد وباع آخر مايملك وهو منزل آبائه الذى بقى له فى الريف . ورحل الى العاصمه ومعه النقود فما ان رأته وعلمت بما كان حتى اكرمت وفادته واستولت على المال وبدأت تبتاع الملابس الفاخرة . والاثاث الرائع والحلى الثمينة حتى فرغ المال وأدركت أنه امسى فقيرا معدما فانصرفت عنه وعادت الى حياتها المستهترة فكان يضربها ويبكى ويخضع ثم يثور ثم يستغفر ثم يعنو . وفى ذات ليلة وهو راجع من المدينة بعد منتصف الليل طرق الباب فأطلت الخادم وما ان رأته حتى صاحت فى وجهه وانتهرته وتوعدته باخطار البوليس فأدرك أن جولييت أمرت بطرده فهاله الأمر وظنها داخل المنزل

مع عشيق فدفع الخادمة وسار حتى مخدع النوم وتلفت فلم يبصر أحداً وحانت منه نظرة فرأى الكلب الابيض جاثما فى الزواية يحـــدق اليه فثار حقده فجأة واستنكر كيف أن هذا الحيوان يصيب من السعادة والحب مالن يكون من حظه أبدا فانحنى عليه وفى حسد وبغض وجنون أمسك برقبته وضرب به الارض فتفجر دمه فقهقه جان واحتمله وألقى به على السرير .. سريرها الذى استحال الى بحيرة صغيرة من الدم يسبح فيها جسم الحيوان البائس المسكين !

وهبط الدرج واستقبل الشارع وفيما هو حائر يتطلع اتسعت حدقتاه بغتة وارتعش من قمة رأسه إلى أخمص قدمه . لأنه شاهد . . . شاهد المصور . . . صديقه الحميم راجعا مع جولييت فى عربة يقبلها ويضحك ! . . .

لم يتقدم جان . ولم يصح . بل لم يتكلم . أحس أن العذاب قد انتهى فعاد أدراجه يترنح ويهذى كسكير . وفى الصباح ابتاع قبعة صغيرة وثوبا أزرق . وحذاء غليظا وعول أن يشتغل . . . أن يشتغل بيديه كعامل بسيط !

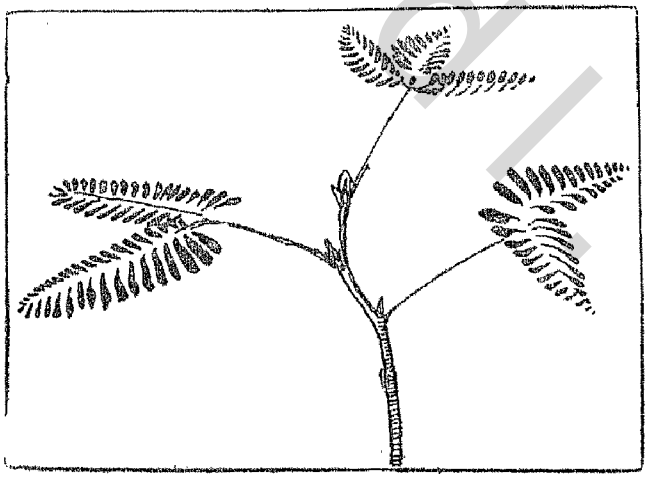

بين الثلوج

La Neige sur Les pas

هنرى بوردو

هنرى بوردو مؤلف هذه القصة روائى فرنسى شهير وعضو فى المجمع الادبى . بدأ حياته الادبية بنشر سلسلة مقالات وبحوث تناولت بالنقد كبار كتاب عصره . ثم تتلمذ على القصصى (بول بورجيه) واعتنق مذهبه فى التحليل النفسانى ووصف خلجات الحس والضمير ولكنه ينزع نزعة خاصـــة فهو يمزج التحليل بالحوادث الشائقة القوية ، يختار حادثه عنيفة تمتلك على القارىء مشاعره ثم يجتهد فى رسم العواطف والميول بالقدر الذى تسمح به الحادثة . فالحادثة عنده فى المرتبة الاولى ويجىء بعدها التحليل والوصف . والقصة التى نلخصها هنا هى أقوى رواياته على الاطلاق . وقد أعجب بها الناقد أميل فاجيه واستقبلها عنـد ظهورها بعبارات التشجيع والثناء

صبية فى ريعان الشباب ونضرة العمر . ملء نفسها الامل والاخلاص تود أن تبذل نفسها عن طيب خاطر فى سبيل شخص ممتاز أو عاطفة كبيرة ، شديدة الاحساس الى حد الغلو ، أبيه النفس موفورة العزة . تحلم بالحب العظيم كمعظم النساء ولا تفكر فى الزواج إلا وتجول بخاطرها صور المرح والتفاهم والعطف والثقة المتبادلة

هى جميلة وعارفة بجمالها . ترى مايحدثه قوامها الممشوق وعيناها الساحرتان وفتنة صباها من أثر بعيد فى الرجال ، فتبهت ويحار فكرها فى تعليل تلك القوه

التى حبتها بها الطبيعة عفواً كما يخلع الربيع ضياءه على الوردة اليانعه

هى فقيرة ، حال الفقر بينها وبين الظفر بالشاب الذى تصبو اليه أحلامها فاقترنت بكهل واسع الثروه . وانصرفت لحياتها البيتية ساكنة مطمئنة قانعة راضية . . .

تلك هى تيريز زوجة المهندس الثرى مارك روميه أحبها الرجل حباً يقرب من العبادة . حباً صامتاً ملحاً عميقاً . يلهبه تفاوت السن . وتكسبه الرجولة الناضجة نوعاً من القوة والحدة والصرامة والاستئثار

كان زوجها طيب القلب ، حنوناً ، لايدخر وسعاً فى سبيل مرضاتها وإدخال السرور على فؤادها القلق الفتى . ولكنه كان شديد السكريام . على شىء كبير من الغطرسة والشموخ . يحب مهنته فوق مايحب زوجه . يقدس العمل أضعاف تقديسه لمطالب المرأة واحتياجاتها . لايعنى كثيراً بما تشتمل عليه نفسها من عواطف بل يهتم بالمظهر ، مظهر البذخ والترف والنعيم يلقيه عند قدميها ويظن أنه مالك به ذلك المخلوق المتقلب الظامىء الطموح

مرت ثمانية أعوام ورزقت تيريز فتاة رائعة الحسن دعتها جولييت . وسرت الحياه فى مجراها العادى . لاحادث غريب . ولا احساس خارق . ولاميول ملتهبة . ولا رابطة روحية وثيقة تؤلف بين قلبين . بل ركود . وصرامة . وعبادة للعمل تشغل الزوج عن العواطف . وتعود بعدها الحياة وقد لفها الظلام واحتوتها الكآبة المرة

لم يكن لتيريز غير فتاتها الصغيرة تقف عليها جهد يومها ، وتودعها خلاصة حبها

ولكن قلبها كان مايزال حاوياً لاينفك يبحث عن الجديد وهى لاتكاد تشعر أو ترى

على أنها كانت تقدر نبل زوجها ووفاءه لها ، واستقامته وشرفه وبذله كل مرتخص وغال فى سبيلها . غير أن الطبيعة لاتقاوم ، وتفاوت السن لابد يجلب الشقاء

وكان لتيريز صديقة قديمة ، وكان للصديقة زوج يدعى أندريه . فتى فى لونه شحوب . وفى حديثه رقة . كلف بالعواطف مثلها . محب للخيال كحبها . مضطرم الوجدان ، سريع التأثر ، يبحث هو الآخر عن الروح الشقيقة التى لاراحة للخياليين إلا بقربها

توثقت عرى الصداقة بين الاسرتين واعتادت تيريز رؤية أندريه والافضاء اليه بما يكنه قلبها من هموم

وأنس اليها وشاهد عظيم الفارق بين زوجه الجامدة وبينها ، فانساق لحكم العاطفة وطارحهـــا الهوى

قاومت أول الامر ، وعز عليها أن تبادل زوجها إخلاصاً بخيانة ، ونعمة بجحود . ولكن أنى لها الشجاعة ومارك منصرف عنها الى العمل ، ونفسها خاوية من الحب . وكبرياء قرينها ورزانته تحفر الهوة بينها وبين التفاهم الروحى الذى تنشده كل امرأة ؟

زلت قدمها واستسلمت لغواية الشباب ، ومنحت عشيقها منها ما اشتهى وتبودلت بينهما رسائل الغرام ولم يعكر على تيريز صفو حلمها إلا يقينها بأنهـا مذنبة وأن زوجها يحبها أعمق الحب .

لم يفطن مارك لما حدث فى شخصية زوجه من انقلاب . ولكن امرأة اندريه احست بما وقع فثار ثائرها واشتعلت فيها غرائر الانتقام ، ووطنت العزم على إصابة زوجها وعشيقته فى الصميم ، فذهبت من فورهـا إلى مارك وقصت عليـه حقيقة ماجرى

هاله الأمر ، ولم يصدق ، بل أخـذ يبحث بنفسه ويتحرى ويراقب والشك يأكل قلبه . والغيرة تصليه مر العذاب . حتى عثر ذات يوم على رسائل اندريه لزوجه فتمثل الواقع الفظيع ورجع بذاكرته الى الماضى وعرض الحوادث البعيدة واحدة . فواحدة . وعندها أيقن بالجريمة ، فطاش صوابه وأحس البغض والاشمئزاز لزوجه فاستقدمها اليه ، وفى ابا واستنكار وسخط واحتقار طردها من البيت شر طرد واخطرها بعزمه على طلب الطلاق !

لم يكتف بهذا ، وكان من الذين يخشون بأس المجتمع ، ويقيمون كبير وزن لأقاويل الناس ، ولا يطيقون من الغير أن يمس أسمهم وسمعتهم بلفظة تعريض جارحة . فما كان منه الا أن تحرش بخصمه ودعاه للمبارزة ثأراً لشرفه ومغامرة بحياته فى سبيل ذلك الحب وهذا الشرف

ذهلت تيريز من عواقب فعلتها وأدركت أن حياة زوجها وحياة حبيبها مهددتان ، وأن ابنتها ستفصل عنها فارسلت الى زوجها تستعطفه وتلتمس اليه أن يقلع عن عزمه ويصفح . ولكنه أبى الاستماع اليها وأغلق بابه دونها ، وحرمها رؤية طفلتها . وذهب فى اليوم المحدد للمبارزة فنازل عشيقها وجرحه . . .

حينئذ فقدت المرأة رشدها وكل ما كانت قد بدأت تحسه من عوامل الندم استحال فى نفسها الى تمرد وعبث وتعلق بحبيبها وخوف عليه من الموت بسببها ولأجلها . . .

نسيت جميل الزوج وواجب الأم وحكم المجتمع . ولم تعد غير انثى طعنت فى غرامها وكاد مخلوق مستبد ظالم يودى بحياة حبيبها

نقمت على سلطة المال التى القت بها بين أحضان رجل لاتهواه . نقمت على التقاليد التى تفرض عليها الوفاء فرضاً . نقمت على الشرائع التى تستلب منها طفلتها دون رحمة ، نقمت على كل شىء واتجهت بعقلها وغريزتها نحو ذلك الشاب الذى شاهدت بعينى رأسها الدماء تسيل منه وهو مسجى على الفراش أصفر اللون مكفهر السحنة تاعسا مسكينا ينظر اليها من خلال جفنية الكليلين نظرة ملؤها التشبث والعبادة والالم

وعاشت بضعة أسابيع وحيدة شريدة . لابيت صديقة تأوى اليه ولا أمل فى عفو أهلها القرويين المحافظين عنها . ولاسبيل الى مجتمع يقبلها فى عداده ويغفر زلتها . ولا وسيـــلة تستطيع بها رؤية ابنتها ومخاطبتها وتقبيلها ولو مرة واحدة . . !

تنقلت من فندق الى فندق ومن حى الى حى والحيرة تطاردها والقلق مستحوذ عليها والرغبة فى انقاذ خليلها تفوق فى نفسها كل رغبة

أما البؤس فلم تكن لتحفل به فقد ألفته أيام كانت فتاة مرحة طروبا لاتعرف الزواج ولا الهوى أيام كانت تقضى طوال نهارها فى تلك القرية البعيدة تتعهد الماشية وتسهر على البيت وتجمع الثمار الناضجة المتساقطة وتقطف العناقيد من الكروم وتنثر أوراق الازاهير البيضاء وتعدها متسائلة عما يخبى لها المستقبل من سعادة أو شقاء.

أما كان التبتل أجدر بها من حياة كهذه ؟ أما كان الزوج الربفى البسيط الجميل أصلح من زوج كهذا ؟ أما كانت القناعة أولى بها من مغريات الخيال ومفاتن النعيم الحضرى ؟

ولكن أية فائدة من العود الى الماضى وهى قد تزوجت فشقيت ، واستولدت فولدت للغير . وأحبت فكادوا يقتلون حبيبها ؟ ..

كلا . ان تيريز لن تخضع . لن تبيع نصيبها فى السعادة . لن تتخلى عن عشيقها لن تتركه فريسة الضعف والمرض . هو الآن الانسان الوحيد الذى تستطيع أن تهبه كل مايجيش به قلبها من عطف ورحمة وتوق الى الحنان وفعل الخير

هذا ماطاف برأسها واعتزمت الأخذ به

وعلم أندريه بما كادته له امرأته . فازدراها كراهية لها وعاد لايطيق عشرتها وكبر عليه ان تنبذ حبيبته من المجتمع وتشرد فى الطرقات وتعامل معاملة مريض موبوء . فاضطرم حبه وضاعفته الحسرة والشفقة تأججاً واضطراما

وعيل صبر تيريز وشعرت باستحالة الحياة بعيدا عن أندريه . وكان فؤادها يذوب لوعة وأسى كلما تصورته طريح الفراش يئن من فرط الألم ويذكرها ولا قبل لها بالسكوت بجواره والذود عنه والتفانى فى خدمته وحمل بعض الألم الذى يعانيه

وفى ذات يوم وقد لج بها الضنى ، وأمضها الشوق والحنين ، ذهبت اليه وعرضت عليه ان تصحبه الى مكان قصى . . . مكان رائع وجليل ، بعيد عن باريس وذكرياتها ، بعيد عن المأساة وآثارها ، فى هدأة الطبيعة وجمالها فى بلاد سويسرا بين جبالها ووديانها . حيث المصحات متوافرة والهواء نقى والشفاء ميسور

ورفع اليها طرفه الساجى ، وتأملها لحظة ، وأبصر هالة الارق الزرقاء تحدق بعينيها ، وشاهد فى غورهما السحيق مختلف عوامل الطيبة واليأس والفداء تضطرب وتتماوج ، فأطرق برأسه راضيا ، وابتسم لها ابتسامة شكر واخلاص

وفى اليوم التالى كانت تيريز جالسة وحبيبها الجريح بالقرب منها متكىء الى صدرها تحنو عليه وتؤاسيه وتضمد جراحه والقطار ينهب بهما الأرض نهباً الى سويسرا بلاد الامن والجمال والحرية !

* * *

وما كان أمتعها حياة تلك التى قضياها هناك ، تسر اليه همومها ويبثها نجواه ، تقبع فى زاوية بجواره وتقوم على شئونه ، وهو يلثم يدها ولا يعرف بأى العبارات يشكرها والدمع ينهمر من عينيه . والطبيعة والمرأة تجددان نشاطه وتصبان فى عروقه دم الحياة !

كانا يسيران جنبا الى جنب يمتعان النظر بالاشجار الزاهرة الباسقة ، والغدران الصافية المتلألئة ، والاودية العميقة ، والسحب القلقة الرخوة تتخـــذ أفتن الاشكال وأعجبها

وكان الهواء العاطر يستقبل أندريه ويحتضنه كاحتضان حبيبته ، مفعما صدره ، مالئا رئتيه ، مستحثا همته باعثا فيه مستكن القوة ومدخر الشباب

ولم يكن ليعكر صفو هذه اللحظات غير ذكرى الطفلة المعبودة (جولييت) تطوف بمخيلة المرأة فتشيع الكآبة فى محياها وتتمدد على جبهتها الغضون وتروح فى شبه غيبوبة طارئة ثم تبكى !

فكأن القدر يأبى الا أن ينكل بكل حب ، ويدس السم فى الكأس الطافحة ، والهلاك فى الثمرة الناضجة ، وكان اللعنة ، لعنة الزوج والولد ، لاتنفك تحلق فوق العاشقين وتتبعهما وتسوق خطاهما الى حيث يريد القضاء

* * *

الشتاء وكان فى مستهله والهواء يوشك أن يبترد . ففى صبيحة يوم فكر العاشقان

فى الخروج الى النزهة . فاعدت تيريز سلة كبيرة ملأتها بالخبز واللحم المقدد وزجاجات الماء . وانطلقت بخليلها يضربان فى انحاء المدينة وينتقلان فى ضواحيها بعيداً عن العيون والارصاد

وكان يرافقهما الدليل يهديهما السبيل بين الآكام والوهاد . ولكنهما آثرا الانفراد بنفسيهما فصرفا الرجل وامعنا فى السير بين الجبال

وخطر لهما مايخطر لمعظم العشاق . وهو أن يرتقيا استطاعا ويهجرا الارض الى فسحات السماء . فاعتزما الصعود الى قمة الجبل ، جبل فولان الشاهق حيث الثلوج المتراكمة ساطعة كالمهن المنفوش

نهاهما الدليل عن الصعود قبل أن يرحل . ولكنهما استخفا به ولم يكترثا له

وأسرعت تيريز فجاءت بحبل شدته الى خصرها واوثقت بطرفه الآخر اندريه وتقدم الحبيبان بخطى ثابتة وجعلا يتسلقان الجبل شيئاً فشيئا . .

كانا يتدافعان ويصعدان والريح الباردة تصفر فتلفح وجههما وتدميهما ، والشاب يستجمع قواه ويبتسم ويخفى لهثاته ويعبث . والمرأة تضحك ملء شدقيها اسعد ما تكون بمصارعة العناصر بعد أن صارعت الاسرة والقوانين والناس

وأوغلا فى السير بين الثلوج واحاطت بهما اكوامها من كل جانب والتفتا واذا الطريق تنكرت عليهما فجأة واتسعت وتشعبت مسالكها وتضاربت واستطالت لاتستطيع العين أن تقع منها على أى مخرج أو منتهى

ابصرا نفسيهما وحيدين بين تلال من الثلوج : الجو مكفهر ملبد فوق رأسيهما والريح العاتيـــة تعصف بجسميهما . والبرد القارس يسوط منهما الجلد ويفرى العظام

حدقت تيريز فى عشيقها وعلا محياها الاصفرار ونظر اليها مبهوتاً وأشاح بوجهه مضطربا ، فاستولى عليها الذعر وقلبت طرفها الحائر فى الافق الرحيب علها تجد فرجة تهرع اليها . ولكنها لم تشهد غير قطع الجليد والثلج تملأ الجبل وتسد منافذ الطريق

لم تيأس وأقبلت وصاحبها يغدوان ويروحان باحثين عن الناحية التى صعدا منها يناديان ولا من مجيب . يبحثان على غير جدوى . يسيران على غير هدى الى أن أيقنا فى النهاية بأن الخلاص محال وانهما ضلا الطريق وتاها بين الثلوج !

اظلمت الدنيا فى عينى تيريز واشتد خفقان قلبها وتطلعت الى الشاب مرتجفة والهة أخوف ماتكون عليه . وبغتة ، وهو مايزال يمشى وهى تتبعه ، واقدامها تنغرس فى الجليد ، والريح تدفعهما ، والامل العنيد يمنيهما بالفوز والنجاة ، توقفت تيريز لحظة وجحظت عيناها وطاش صوابها وجعلت تجذب الحبل ما استطاعت ولكن اندريه كان قد وصل الى رأس منحدر سحيق وهو لا يشعر فاستطرد المسير برغمه . وعلى حين فجأة تمايل وعراه شبه دوار وتكسرت اكوام الثلج تحت قدميه وانبسطت ملساء ناعمة رخوة . فانحنى على نفسه وحاول أن يكر راجعاً ولكن المنحدر جذبه اليه فانزلق وهوى

صاحت تيريز صيحة هائلة بددتها الرياح وهوت اثر حبيبها

وظلا يتدحرجان وقطع الثلج تصفعهما . والجليد المتناثر يكاد يعمى أبصارهما والحصى تتساقط كالمطر عليهما والصخور الناشزة كالسهام تمزق عضلاتهما وتهشم رأسيهما

وكانت تيريز تصرخ صرخات جنونية ، لا تكاد تتعلق بشىء حتى يغور بين أصابعها ويتفتت .. أما أندريه فقد فقد رشده واستسلم لمقدوره والثلوج تنهال عليه وتتقاذفه وهو لا يعى ...

واستقر بهما الانحدار على لوح من الثلج متماسك ضخم فدنت تيريز من عشيقها وإذا به مشعث الشعر غائر العينين أصفر اللون مهشم التقاطيع . تسيل منه الدماء !

صرخت مستنجدة فلم يجبها سوى الصمت الرهيب

وكانت قد ربطت إلى ظهرها سلة الطعام ففتحتها وسقته جرعة ماء ومزقت طرف ثوبها وبللته وجعلت تمسح به جبين الشاب

ضمدت جراحه وأطعمته القليل من الزاد وراحت تفتش عن مأوى ولكن أى مأوى يمكن أن يعثر عليه انسان تائه فى جبل من جليد معلق بين الارض والسماء ؟

وأقبل الليل

لم تنم تيريز لحظة واحدة . كانت تقاوم النوم جهدها . وتحفز عشيقها لمقاومة النوم مثلها مخافة إن هما اغفيا ولو فترة قصيرة أن تغمرهما الثلوج الهابطة فى اطراد من أعلى الجبل

وانبلج نور الصباح فقامت تيريز وجعلت تنفض أكوام الجليد المتراكمة حولهما . وأطعمت أندريه وكشفت عن جراحه وعادت فضمدتها من جديد

وعبثاً كانت ترسل الصيحة تلو الصيحة وتضرب فى عرض الجبل باحثة عن موئل أو مجير

خيل اليها إن القدر يريد إلا أن يدفنها وعشيقها بين هذه الثلوج

رجعت اليه فألفته مسلوب الحول ذاهب اللب ممدداً بين ويزفر من ألم الجراح ومضاضة التعب وعذاب الأرق الطويل

جلست بقربه وشاع فيها اليأس واسلمت أمرها للقضاء ، يشكو أندريه فتؤاسيه . ينام فتوقظه . وهو لفرط مغالبة النعاس وفرط الألم قد حال هيكلا عظميا ترف فيه اللحظة بعد الاخرى أنفاس قصيرة متقطعة

وظلا هكذا ثلاثة أيام بلياليها . وفى صبيحة اليوم الرابع خارت قوى أندريه وطغت على عقله الحمى فجعل يهذى ويصيح . ثم انقبضت عضلات وجهه وشحب لونه شحوبا أغبر مخيفا . وسرت رعدة هائلة فى جسده البالى فدب الرعب فى نفس تيريز وأخذت تحبيبها تهزه وتستنهضه وتخاطبه وتقويه فتحرك قليلا ورفع اليها بصره الذاهل وناشدها — وخفقان فؤاده يكاد يخنق الالفاظ على شفتيه — ان تعود الى زوجها . الى ابنتها . إلى أسرتها . أن تعيش لهم بعد اذ يكون الموت قد أجهز عليه

صاحت مستنكرة وقالت انها باقية هنا . لن ترحل . لن تتخلى عنه واذا أصابه

الموت فستموت معه وفيما هى تتكلم أصعد الشاب زفرة كليلة طويلة واجتاح محياه الاصفرار واستوى بعض الشيء واندلعت عيناه ثم تداعى وقضى !

احتضنت جثته وأخذت تصرخ وتبكى وتستغيث مذعورة مأخوذة مختبلة . ولما لم يجدها الصراخ نفعا سكتت فجأة واقتربت من الجثة وحدقت اليها وجلست بجوارها كعادتها ثم مدت أصابعها الضامرة المرتعشة فأغمضت العينين الجاحظتين وانحنت فقبلت الجبهة الباردة وظلت مكانها هادئة صامتة ذاهلة حتى الصباح !

* * *

وكان فى أعلى الجبل شبه مصح أو مستشفى يطلق عليه اسم مصح سان برنار فلما انصرمت تلك الايام الاربعة ولم ير الدليل أى أثر للعاشقين فى المدينة ذهب وأبلغ الامر رئيس المستشفى

أسرع الرئيس برفقة الدليل وكلبين كبيرين أطلقهما بين الجليد فجاسا خلال الجبل وشما رائحة الجثة وجعلا يعويان عواء شديدا وما ان طرقت الاصوات مسمع تيريز حتى أجابت عليها بأنين ممزق طويل أرشد الرئيس الى مكان الحادثة

تعلق بحبل وهبط اليها فرأى امرأة ملطخة الجسم بالدماء ممزقة الثوب نصف عارية قد التصق شعرها المموج الغزير بالدم الباهت المتجمد على وجهها ويديها وشاهد الجثة بقربها تنبعث منها رائحة كريهة وتسبح هى أيضا فى بحيرة من الدم المتجمد الحالك السواد

وأبصر الثلج يكاد يغمر الجثة ويخفى المرأة حتى ساقيها فأوثقها بالحبل وأصعدها وكذلك فعل برفيقها وما ان نقلت تيريز الى المستشفى حتى غابت عن صوابها واحتواها اغماء عميق

أول ماخطر لها بعد ان استفاقت ورأت الممرضة بجوارها والطبيب يتنقل فى أنحاء الغرفة بخطى حذرة . وشبح الميت يلوح من خلال الأستار أن ماوقع لم يكن غير قصاص أنزله بها الله جزاء لها على هجرها ابنتها وايثارها لذتها على خدمة الطفلة البريئة التى لم تقترف أى ذنب

تمثلت لها الفتاة وحيدة فريدة لاأم تحنو عليها ولا عطف ولا عناية ولا حب فتبدل احساسها وندمت أحر الندم على مافرط منها . وجعلت تسائل نفسها ألم

يكن أولى بها اخماد لواعج قلبها وتوديع خيالات الغرام والرضى بحب زوجها الصارم المتفطرس فى سبيل تربية ابنتها المعبودة جولييت

وذكرت ماطلبه اليها اندريه وهو يلفظ النفس الاخير . فسالت عبراتها حسرة على عشيقها وزوجها وابنتها وما انتهت اليه

أدركت ان كل هذه الآلام لن تؤتى ثمارها الطيبة الا بالعودة العاجلة الى حظيرة الاسرة مهما كلفها ذلك من عبودية واستبداد وذل

وخشيت أن تموت قبل أن ترى ابنتها وان يقف زوجها على ماوقع فى نفسها من تبدل عظيم

بل لقد سمت عواطفها الى حدانها اعتزمت طلب الصفح من قرينها كى تتجه الى العالم الآخر مطهرة القلب من كل شائبة

وتسلم الزوج من رئيس المستشفى برقية اخطره فيها بأن زوجه تموت وأنها تلتمس منه المغفرة وتناشده اخلاصه ونزاهته الا ماجاء اليها ومعه الفتاة

اضطرب الرجل واستجاشت فيه الخيانة عوامل الثأر والقسوة والكراهيه وكاد يمزق البرقية ويدعها بلا جواب ، ولكنه كان ما يزال يحب تيريز لم تستطع خديعتها أن تمحو من فؤاده ذلك الهوى الدفين . لم تستطع الايام أن تعدم تلك الصورة الفاتنة التى ما برحت تلازمه فى احلامه وتملأ فراغ لياليه

ولد الحب فى قلبه الشفقة . فقام الى امتعته فحزمها واعد حقائبه واصطحب الفتاة وولى وجهه شطر تلك البلاد التى شاهدت مصرع خصمه وتكاد تودى الآن بحياة من يحب

ما ان ترك القطار ووطئت قدماه أرض سويسرا حتى استرعاه مشهد جنازة تسير فسأل من الذى قضى فاجابوه انه العاشق الشاب الذى تاه فى جبل الجليد ومات هنا بين أحضان عشيقته

ثار بغضه القديم ثانيا وكاد ينكص على عقبيه ، ولكن الرحمة تغلبت ، فجذب الفتاة واندفع من فوره نحو المستشفى

دخل الحجرة فألفى زوجه الجميلة مسجاة على الفراش صفراء هزيلة بائسة

مقصوصة الشعر تلف وجهها الأربطة وترسل عيناها الحمومتان نظرات حائرة متوسلة

جثا عند حافة السرير وتناول يدها الناحلة وجعل يلثمها فامرت أصابعها على رأسه وفاضت عيناها بالدموع . وفتح الباب فجأة ودخلت جولييت فما ان رأتها الأم حتى صاحت من أعماق قلبها صيحة فرح عظيمة واعتنقت الفتاة وجعلت تقبلها قبلات منتشية تائهة

* * *

وكان لابد للزوج من مواصلة اعماله فعاد الى باريس صحبة الفتاة

ومرت ثلاثة أشهر وتيريز ماتزال فى سويسرا تعالج فى المستشفى وتتقدم بخطى حثيثه نحو الشفاء

وحالما خرجت الى المدينة واستطاعت أن تشهد نور الشمس وتستعيد صباها وقوتها أرسلت تستقدم زوجها فاجابها ان فى وسعها الرجوع الى باريس والمكوث فى البيت مع ابنتها ووالدته العجوز . فاصرت على مجيئه . ورغبة منها فى الهاب حبه القديم لها واستعادة قلبه اليها مخلصا طيبا رحيما كما كان ، ذهبت الى بيتها فى ضاحية من ضواحى سويسرا حيث يقطن أهلها ولبثت فى انتظار زوجها هناك .

وفى ذات يوم وتيريز خارجة من المعبد تهرول مسرعة الى البيت رفعت رأسها بغتة واذا زوجها أمامها وجها لوجه ولما ان أبصر الأزهار والرياحين والكروم وتوسط الحديقه الغناء التى كانت تمرح فيها تيريز أيام ان عرفها فتاة طاهرة ساحرة لعوبا ، استيقظ فيه غرامه الاول وادرك ماترمى اليه وايقن من صحة توبتها . فانحنى عليها وضمها بين ذراعيه وقبلها فى فمها قبلة الحب والرحمة والغفران !